عبد العزيز جادو

العقل منبع الحكمة

الطبعة الأولى ١٩٧٨

ملتزم بالطبع والنشر

دار الفكر العربي

تقـــــديم

بقلم : الدكتور عثمان لبيب فراج

من خصائص العصر الذى نعيش فيه ذلك التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل الذى حققه الانسان فى نصف القرن الاخير .. ونزعة الانسان فيه الى العمل والى ان يحقق بأفعاله وتصرفاته أكبر قدر من امكانياته ، كأن وجوده مرهون بما يفعل وبما ينتج ..

وفى نفس الوقت ، وبقدر ما حققه الانسان فى ميدان العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، بهذا القدر ذاته ونتيجة مباشرة له ، يزداد خوف الانسان وقلقه ، ويشتد ضيقه ويتزايد تبرمه بالحياة .. وبالتالى تزداد عقــده وامراضه النفسية والعقلية .. هذا القلق النفسى هو عامل فى حد ذاته يدفعه الى النشاط العملى لشعوره بأن العمل أحسن وسيلة لخفض القلق الذى يعانيه عندما يفكر فى مصيره ومصير الانسانية جمعاء . فقد تضخم هذا القلق حتى تجاوز حدود الفرد والجماعات الصغيرة المغلقة على نفسها وأصبح نوعا من القلق العالمى .. ومجرد التفكير والتأمل من شأنه أن يزيد من وطأة هذا القلق . فلا بد أن يتحد التأمل والعمل فيغذى أحدهما الآخر بأن يثير التأمل طريق العمل ، وبأن يحدد العمل موضوعات التأمل ، حتى يواصل الانسان سيره نحو مستقبل أفضـــل مستندا الى دعامتى الفكر المستنير ، والفعل المجدى ..

وهناك فى عالمنا الذى نعيش فيه الكثير من نواحى الغموض والابهـــام والاسرار الخافية التى نحتاج فى دراستها الى التأمل ، والبحث ، والتفكير وسيعرض علينا هذا الكتاب القيم اكثر هذه الاسرار سحرا ، لانه يتعلق بأقرب شىء اليك .. يتعلق بك أنت وبمن تعرف من أهل وأصدقاء .

ففى هذا الكتاب يعلمنا المؤلف كيف ندرس أنفسنا ، وكيف نفهمها ، ونعيش معها تطبيقا لما أكده « هادفيلد » فى وصفه للصحة النفسية حينما قال ان أركانها ثلاثة هى : « أن يعرف المرء نفسه ، وأن يتقبلها ، وأن يرسلها على سجيتها » .. فكلما زادت معرفتنا بنفسيتنا زادت معرفتنا باحدى الوسائل التى تحقق لنا أكبر قدر من التكيف والتوافق ، وزادت بالتالى قدرتنا على تخفيف عبء القلق وخفض التوتر النفسى .

ولعل مما يزيد هذا الكتاب قيمة هو توخى المؤلف البساطة فى عرض تأملاته مع عـدم الاخـلال بالدقة العملية ، وبما يتناسب مع معلومات القارىء فى علم النفس ، مما لا يسعنى معه الا أن أهنئه على الجهد الذى قام به لكى يخرج هذا الكتاب ليكون هدية ثمينة تعتز بها المكتبة العربية .

عثمان لبيب فراج
دكتوراه فى الصحة النفسية
مدير قسم الخدمة العامة
بالجامعة الامريكية
وأستاذ الصحة النفسية
بجامعة عين شمس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعل القراء يعرفون بعد قراءة ما تقدم من كتبي المتواضعة أني أسير في طريق واضح ، واتعمد الوصول الى غاية محدودة ، تلك هي اسعاد النفس البشرية ومحاولة أصلاحها ، لتمثل دورها الطبيعي على مسرح الحياة في تفاؤل واشراق .

لقد اتخذت من دراستي المتنوعة لعلم النفس سببا الى هذه الغاية الواضحة ، وقد عز علي أن أجد أكثر مؤلفيه يهتمون بالمصطلحات والتعريفات ، ويتركون القارىء في ضباب كثيف يحاول أن يرمي ببصره في منافذ الافق فلا يستطيع .. وربما يرجع يائسا مقهورا من شوطه المرهق وآثر أن يبحث عن سعادته في غير ما كتبه النفسيون المتعمقون ، وهيهات أن يجد السبيل .

لذلك رأيت تذليل المباحث الغامضة ضريبة حتمية أقوم بأدائها مستريح النفس ، سعيد الخاطر ، وقد لقيت من اقبال القراء ، وتقريظ الناقدين ما دفعني الى الاستزادة والتنويع ، ولعل أدق الخوافي في ظلمات النفس ما يتعلق بالعقل البشري ، فقد تكاثرت حوله الظنون ، وتشعبت بازائه الآراء ، وأصبح طالب الحقيقة يكابد رهقا في استجلاء غوامضها المبهمة . ولعلي أكون أحد هؤلاء الذين انتفعوا بطوافهم حول العقل البشري فوقفوا على بعض أسراره الغريبة تاركين مالا يزال رهن البحث الى جولة أخرى حتى يقول العلم الحقيقي فيه كلمته اليقينية ، فنتقبله عن ثقة واقتناع ونجلوه للقراء منشرحين ..

وهذه لمحات خاطفة عن الاسرار الغامضة في الخليقة ..

ودعوة الى المشاركة في قواها الخارقة للمألوف ...

وتحديد لمعالم الطريق الى حياة أفضل وأسعد وأرقى ...

ومحاولة — أرجو أن تكون ناجحة ، موفقة — للعمل على الكشف عن المنطقة العجيبة ، المذهلة ، التي في العقل البشري ، هذه المنطقة التي لا تستعمل الا في القليل النادر ، وهي مع ذلك ينبوع متدفق يفيض بالحكمة

والحب ، والسعادة ، والنجاح ، اذا أمكن استكشاف مجاهله ، والغوص في أعماقه ، واستكناه ما خفى منه ، ثم استغلاله واستخدامه ..

وأملي كبير في أن قارئي الكريم سيشرع فورا باخلاص وأمانة ،وحماس في البحث عن مصدر هذا الينبوع الازلي الدافق ، ويضع يده على المفتاح الرئيسي للسر الكبير الذي يقود الى : الحياة الناجحة ، الموفقة ، والشباب الدائم ، والمجد ، والقوة ، والسعادة ، والسلام ..

قوانا الخارقة .. الخفية

ما هو التحليل النفسي ؟ ..

لعل أفضل جواب على هذا السؤال هو أن التحليل النفسي معناه : الكشف عن تيارات العقل الخفية ، ومكنوناته التى تتحكم فى تصرفنا وسلوكنا ، والبحث عن أشياء مخبوءة ومكبوتة ، ومنسية ، وابراز هذه المادة المستكشفة وتقديمها الى الوعى أو العقل المفكر .

ان كل هذه العمليات العقلية التى تسير بثبات على الدوام ، والتى نغفل عنها ونجهلها تماما تسمى : « العمليات اللاشعورية » .. وليس معنى هذا أن خطا معينا يفصل بين العقل الشعورى والعقل اللاشعورى اذ لا وجود البتة لشىء من هذا القبيل .

ولقد تأتى فكرة أو خاطرة فى لحظة ما الى المستويات الشعورية من العقل ثم لا تمضى لحظة أخرى حتى تكون هذه الفكرة أو الخاطرة مغمورة فى الطبقة اللاشعورية من العمليات العقلية .

والعمليات العقلية ، كما يؤكدها الرأى الذى يقترن باسم العالم الكبير ت.هـ. هكسلى ، انما هى ظواهر لاحقة أو هى نواتج ثانوية تنشأ عن عمليات تجرى فى المخ . فهى كلها تتسبب عن عمليات تحدث فى المخ ولا تسبب فى ذاتها شيئا آخر . فالعمليات العقلية ، كما يرى أصحاب هذا الرأى ، انما تستحدثها عمليات المخ على نحو يماثل استحداث النغم داخل صندوق موسيقى . اذ تنشأ الأنغام ، بتعبير آخر ، عن عمليات تجرى فى الصندوق ، فهى أنغام لا تتسبب احداها فى استحداث الأخرى ولا تؤثر بدورها على الآلة تأثيرا سببيا .

وأكثر النظريات القائلة بالاستناد الى المخ اعتدالا هى نظرية وليم جيمس . فجيمس يتفق وهكسلى على أن ما يجرى فى المخ من عمل عقلى

انما هو « وظيفة من وظائف عمل المخ المتجانسة المجردة ، وتتفاوت هذه الوظيفة بتفاوت عمل هذا الأخير ، وهي بالنسبة اليه كنسبة الأثر الى المؤثر » . لكنه نفى ما خلص اليه هكسلى من أن العمليات العقلية لا تأثير لها من الوجهة السببية . فالعمليات العقلية ، كما يرى جيمس ، يمكنها في حالة حدوثها أن تزيد من ، أو أن تطمس نشاط عمليات المخ التي تعزى اليها — مؤكدا بهذا ما يمكن أن يسمى في التعبير الحديث بالأثر الانكفائي .

على أن هناك احتمالا آخر هيأته النظرية المزدوجة double-aspect theory ، التي جاء بها تشارلس بروض . وهذه النظرية تنطوى على مجانبة الافتراض الذى يضاغ ولا سؤال له ، وهو افتراض يذهب الى أن عملية معينة يمكن أن تكون جسمية أو عقلية ، ولا يمكن أن تكون كلتيهما . فبروض يرى أن طائفة من عمليات المخ يمكن أن تكون جسمية وعقلية معا — أو هي ، بتعبير أصح ، يمكن أن تجمع الخصائص الجسمية والعقلية في آن واحد . وعلى هذا فلا تكون لدينا حسب النظرية المزدوجة هذه سلسلتان — سلسلة من عمليات المخ وأخرى موازية لها ومعتمدة عليها هي سلسلة العمليات العقلية — بل تكون هناك سلسلة مفردة واحدة من عمليات المخ ويكون معظمها جسميا في طبيعته ، لكن بعضها يتصف في ذات الوقت بخصائص عقلية . فالخصائص الجسمية يتسنى للمراقب ان يلاحظها ظاهريا (اذا توافرت الآلات الدقيقة ، أو يمكن ملاحظتها نظريا بالأقل) أما الخصائص العقلية فلا تتاح ملاحظتها الا عن طريق الاستبطان فحسب .

وتذهب النظرية المزدوجة الى أن أية عملية تجرى في المخ ذات خصائص عقلية يمكن أن تترك آثارا سببية تختلف عما تتركه عملية تحدث في المخ لكنها بطبيعتها تحمل خصائص جسمية . وعلى هذا فالنظرية هذه تتفادى كثيرا من مصاعب نظرية الظواهر اللاحقة — وهي النظرية الذاهبة الى التأكيد بأن عملياتنا العقلية لا تؤثر فيما تأتيه من أعمال .

ولعل الصعوبة تكمن فى تبين الطريقة التى يمكن بها اختبار النظريات المتفاوتة هذه اختبارا تجريبيا ، والاتجاه السائد فى علم النفس اليوم ، وفى الفلسفة يرمى الى اعتبار مناقشتها مضيعة للوقت . لكن مسألة العلاقة بين العقل والجسم ربما تستمر لتبهر أولئك الذين يستهويهم التأمل الفكرى .

***

والعقل قد يعد مصدرا للمخ ، أو هو بالفعل مصدره ، ولكن لا يصح القول بأن المخ مصدر العقل ، فلقد أثبتت البحوث المعملية الصرفة التى تجرى فى البلاد الأنجلو سكسونية تحت وصف الباراسيكولوجى — أى ماوراء النفس — بما لا يدع مجالا لأية مكابرة الآن امكان استقلال الوعى الانسانى عن الجسد المادى ، فى شتى صور الادراك التى تصل الينا عن طريق حواسنا الخمسة ، وبالتالى امكان استقلال الشعور عن الحواس المادية ، والتفكير عن المخ . أو بعبارة أخرى ثبت انتفاء الارتباط بين الأمرين بغير انكار فى نفس الوقت للروابط الوثيقة بينهما .

« فاذا صح تشبيه العقل بزهرة فان المخ ينبغى أن يعد ظلا لها ، فاذا ما تلاشت الزهرة تلاشى ظلها حتما ، اما اذا تلاشى الظل فان ذلك لا يعنى بالضرورة تلاشى الزهرة ، اذ أن ظل الزهرة يمكن أن يتغير شكله ، أو أن يغير مكانه أو أن يضعف أو أن يقوى أو أن يتلاشى لأسباب مستقلة عن الزهرة ذاتها . وهذا النظر هو حجر الزاوية فى القول ببقاء الوعى حتى بعد انفصاله بالموت عن الجسد المادى ، وهو جوهر العلم الروحى الحديث وخلاصة ما يستند اليه من حقيقة علمية » (١) .

ولقد انتهى الفيلسوف هنرى برجسون خلال دراساته الى أن « العقل ليس هو الروح وانما هو الدماغ ، وانه لا يوجد محو للذكريات

---

(١) عن « مفصل الانسان روح لا جسد » الدكتور رءوف عبيد ، ج ٢ ص ٩٣/٩٧ طبعة رابعة ١٩٧٦ — الناشر دار الفكر العربى .

بل اضطرب في الأجهزة المحركة » . وفى عبارة اخرى يقول برجسون : « ان وظيفة الدماغ هى العمل على أن يكون الفكر حينما يحتاج الى ذكريات قادرا على أن يحصل من الجسم على حركة معينة هى بمثابة الاطار الذى فيه تدخل الذاكرة من تلقاء نفسها . فمهمة الدماغ اذن هى تقديم هذا الاطار دون الذاكرة .. » .

ويخلص برجسون من ذلك الى أن الفكر مستقل عن الدماغ . ومع ذلك فهذا الاستقلال ليس انكارا للتضامن الوثيق بينهما . وانما هو انكار لفكرة أن النفسى يعادل الدماغى ويوازيه .

وبرجسون حينما يقرر هذه العلاقة انما هو يقررها مستندا فى ذلك الى الرؤية والتجربة (١) .

***

وليس معنى ذلك ملطقا أن التفكير مستقل عن المخ ، بل معناه فحسب أن المخ هو جهاز التفكير لا مصدره ، فاذا فسد الجهاز فسد — بحسب الأصل — التفكير ، ولكن ليس المخ هو مصدر التفكير . كما أن العقل لا يخضع خضوعا محتوما للمخ ، بل ان المخ خاضع لنوعين من العوامل أولهما تأثير العقل فيه وبالتالى فى وظائف الأعضاء ، وثانيهما عوامل الصحة والمرض فيه ، وهى وثيقة صلة بقوانين البيولوجيا والفسيولوجيا التى تلعب دورها فى صحة الجسد المادى وأمراضه . فمن المتصور فى حالات نادرة أن يظل التفكير سليما حتى مع فساد الجهاز الذى يستخدمه لسبب مرض عضوى فيه ، اذا عرف العقل وهو مصدر كل عاطفة وذاكرة ، كيف يتغلب على ضعف جهازه المادى وهو المخ بصورة من الصور التى لا تزال مجهولة من العلمين المادى والروحى معا

---

(١) راجع « المذهب فى فلسفة برجسون » للدكتور مراد وهبه صفحة ١٣١/١٣٢ .

وهذه الاتجاهات لا تستقيم — حتى مع ندرتها البالغة — مع التعليل المادى للتفكير وتستقيم مع التعليل الروحى له ، وبالأخص مع قاعدة احتمال بقاء التفكير بعد تحلل المخ بالموت . ولذا قال ج.ب.راين أستاذ علم النفس بجامعة ديوك : « ان اثبات أن العقل يختلف فى بعض النواحى الرئيسية عن المخ يؤيد النظرية الروحية للانسان ، وهذا يعنى أن العقل عامل قائم بنفسه فى الهيكل العام للشخصية . وعلى هذا فان عالم الفرد لا يتركز تماما فى العمليات العضوية للمخ المكون من المادة » (١) .

والعقل أحد وظائف المخ . مثله مثل الدورة الدموية وظيفة القلب ، والتنفس وظيفة الرئتين . ويمكن مقارنة العقل بتيار أو مجرى مائى لا يتوقف أبدا . ويتألف من مجرى علوى أو السطح ، وجزء سفلى أو تحت السطح .

فالشعور هو الجزء المفكر الذى ندريه ونعلم به . أما اللاشعور فهو الجزء المجهول ، العميق ، ذو المراس الصعب ، الذى يضم الدوافع والاستعدادات الموروثة ، كما يضم الميول والرغبات ، ومشاعر الاثم ، والشهوات المكبوتة ، والذكريات المؤلمة المنسية ، التى لا نستطيع أن نسترجعها بالارادة مهما بذلنا من جهد . فقد دفنت فيه بعيدة عن الشعور والادراك لأسباب تتعلق الى حد كبير بالألم الذى نحمله ، أو الخطر الذى تهدد به الذات ، والعدوان الذى يعتمل فيها • والتعارض بينها وبين قيم المجتمع وقوانينه وتقاليده ، فتكبت وتتوارى عن الشعور فى صورة ما نسميه بالعقدة أو العقد النفسية تصبح بمثابة المحرك الخفى الذى يدفع الشخص الى أن يسلك فى الموقف الجديد الذى يواجهه سلوكا غير سوى ، أو تساوره مشاعر شاذة من الخوف أو الحزن أو الانقباض لا يستطيع ضبطها أو السيطرة عليها حيث تنبعث الشحنات المكبوتة مع ما تضمنته من متناقضات ومؤثرات تعوق عملية التوافق السوى التى يقتضيها الموقف الجديد

---

(١) عن كتاب « العقل وسطوته » للدكتور محمد الحلوجى ص ٢٣٨ .

ويعالج التحليل النفسى فى الأصل ، وعلى وجه الخصوص ، تلك المجريات المجهولة من العقل ، ويهتم بالنبش والتنقيب عن العقد الخفية أو المكبوتة . كما يهتم أيضا بأشياء عقلية أجبرت على الخروج كرها من المجريات الشعورية الى الطبقة اللاشعورية من العقل ليبرزها ويعرضها على الشعور .

تطور العقل اللاشعورى :

أن العقل اللاشعورى أقدم من الانسان نفسه .. ولقد كان من المعتقد أن العقل الانسانى ، اللاشعورى ، بدأ منذ بضعة ملايين من السنين ، ربما يرجع تاريخها الى ذلك الوقت الذى كانت فيه الحياة المنظمة فى بدء نشأتها . وكان سطح الأرض تعلوه مادة رخوة غروية أشبه بنضيض الوحل . هذه الفترة المبكرة جدا من الوجود فى الحياة البدائية تسمى بالعصر الأركى أو الابتدائى . ولقد انصرمت بضعة ملايين من السنين قبل أن تتم المرحلة التالية من الارتقاء المتطور . وقد يتحكم اللاشعور فى الاستجابات البيولوجية الأساسية للتأثيرات الخارجية ، وفى الاستجابات المختلفة للمنبهات التى يتلقاها الفرد من العالم الخارجى .

ويلى تطور اللاشعور ما كان هنالك من زمن امتد من العصر الأركى الى العصر الهمجى ، عصر وجود الحيوان ، ويبلغ من العمر ملايين السنين . ولقد أبان التحول من الحياة « البروتوبلازمية » البدائية الى حالة الحيوان وهو مسئول بلا شك عن ميول ونزعات حيوانية فطرية تظهر من وقت الى آخر فى السلوك الانسانى .

وخطوتنا التالية فى هذا المنهج من الحياة ، تتميز بالانتقال من العصر الحيوانى الى العصر الهمجى الذى استغرق بضع مئات من آلاف السنين . وقدر الانتقال من الهمجية الى حال الانسان بمائة ألف سنة على وجه التقريب من الترقى النشوئى . ويمدنا هذا بالخطوة الأخيرة من هذا

الترقي السرمدى التدريجى منذ بدء الحياة الى الوقت الحاضر ، والطور الذى أسلفنا الاشارة اليه من هذا النظام المركب للانتقال المتطور هو ذلك العصر المعروف بالعصر الاجتماعى . ويقدر عمر هذه الحقبة من الزمن على وجه التقريب بعشرة آلاف من السنين . وهو العصر الثقافى فى تاريخ البشرية المتمدين اجتماعيا .

فاذا وقفنا لنحلل سمات الطفل ، ومميزاته ، وسلوكه ، نجد أن ثمة أشياء ثابتة لا يمكن أن تعجز عن التأثير فينا .. فالحركات الغريزية فى الطفل الوليد التى يقوم بها بشكل توقيعى تشبه تماما ، من عدة وجوه الحركات المماثلة فى الكائنات المائية . ثم ان الصفات أوالسمات المتماسكة فى الطفـــل تحاكى أوجه النشاط فى المخلوق البشرانى ، الشبيـــه بالانسان (١) .

وقد يبدو كل هذا غامضا مستغلقا على الأفهام ، أو خيالا بعيـــد الاحتمال . ولكننا حين نبدأ فى تحليل الحياة ، وسماتنا ، وغرائزنا ، وسلوكنا ، نجد بكل تأكيد أن هناك أكثر من صـــلة علمية ، وأكثر من حلقة نظرية ، بين الخليقة منـــــذ وجود الانسان ، وما قبل وجـــــود الانسان .

فالوليد البشرى من مولده حتى بلوغه الشهر التاسع من حيـــاته يكون النشاط العقلى الشعورى عنده معدوما . ولا توجد لديه الا تلك الاستجابات الغريزية والوظائف البيولوجية للحياة البدائية المنظمـــة ، وهذه الفترة تطابق على وجه التقريب مرحلة التطور الأركية .

وحياة الطفل من الشهر التاسع الى أن يبلغ السنة السابعة من عمره تطابق تماما فترة التطور الحيوانية . ففى خلال هذه المدة ينحصر نشاطه العقلى ويتركز غالبا فى لذته ، وفى جسده .

---

(١) الانسان البدائى أو انسان الغابة .

والمرحلة التى بين السابعة والرابعة عشرة من سنى حياته تتفق على وجه التقريب مع المرحلة الهمجية التى سبق أن أشرنا اليها . وفى أثناء هذه الفترة من الحياة يكون للعبادة ، أو العقيدة ، أو الحب ، دور رئيسى تصوغه فى الخطة العقلية .

وبانتهاء السنة الرابعة عشر تبدأ الفترة الاجتماعية التى يقوم فيها التكوين الاجتماعى للمراهق ، مع النمو الثقافى الطبيعى بأداء الدور الرئيسى .

وليست هذه المرحلة الا مجرد غلاف رقيق جدا اذا قورنت بالطبقة الرقيقة الأخرى من العقل اللاشعورى .

العقد النفسية :

عرفنا أن العقدة النفسية هى حالة لا شعورية لا يدرك الفرد وجودها ولا منشأها . وتنطوى على مجموعة مركبة من أحداث وأفكار ودوافع وذكريات وشهوات ومشاعر بالخطيئة ورغبات مكبوتة مشحونة بشحنة انفعالية قوية تعمل كقوة موجهة تدفع الفرد لأن يسلك أنواعا شاذة من السلوك الظاهر والتفكير والشعور . ويطلق على العقدة عادة اسم الانفعال الذى يصاحبها .

ومن العقد المألوفة ، التى كثيرا ما نهتم بها ، والتى تكون نقطة البداية لكثير من مشكلات الحياة ، عقدة الحكاية العائلية . وهى كغيرها من العقد تنشأ فى الغالب منذ الطفولة ، وتنمو مع الفرد . وهذه العقدة الخاصة بالحكاية العائلية تعنى ببساطة الأفكار والخواطر المختلفة والعواطف المتباينة التى تتركز فى فرد من أفراد الأسرة ، كالتى يركزها الابن فى أمه ، أو التى تركزها البنت فى أبيها ، أو التى تركزها الأخت فى أخيها ، أو العكس .

وربما يعترض الفرد فى أثناء حياته عقدتان أو أكثر من هذه العقد

أى أنه قد يقع صراع من العقد . فماذا يحدث حين يقع هذا الصراع ؟ ربما تحدث أشياء كثيرة ، ولكن أحد الأشياء المألوفة الكثيرة الحدوث هو أن واحدة من تلك العقد تضطر الى الهبوط قسرا الى أعماق اللاشعور . هذا الهبوط الاجبارى أو القسرى يعرف بالكبت .

ومن جهة أخرى قد تنال احدى العقد السيادة على الأخر فترين على الصراع فترة هدوء مؤقتة . وعندئذ يحل الفرد صراعه مهما يكن ، وكيفما يكن . أما اذا نزلت هذه العقد مجبرة الى مستويات اللاشعور ولم يقبلها الشعور أو لم يسلم بها — أى اذا لم يكن هناك تفكير فيها أو أى حديث عنها — فانها حتما ستكشف عن نفسها ان آجلا أو عاجلا ، فى حياة مقبلة على شكل سلوك غير سوى .

فالكبت اذن عملية لا شعورية تلجأ اليها الأنا لطرد الدوافع والذكريات والأفكار الشعورية المؤلمة أو المحزنة ، واكراهها على التراجع الى اللاشعور ، وحيلة دفاعية يدفع بها الفرد عن نفسه كل ما يسبب له الضيق أو الألم ، أو يجرح كبرياءه ، أو يضر بمصالحه فى المجتمع . ويمنع بها الدوافع الثائرة المحظورة — وخاصة الدوافع العدوانية والجنسية — أن تتحقق بصورة صريحة مباشرة يمكن أن تضره أو تؤثر على صالحه فى المجتمع (١) .

ولا شك أن للكبت آثارا ضارة متعددة . فالدافع المكبوت لا يبقى خاملا ، بل يعمل باستمرار على مجال الشعور ، فتظل المعركة مستمرة بين الدافع المكبوت والقوى المسببة للكبت التى تعمل على طمسه ، وفى ذلك استنزاف للطاقة النفسية مما قد يترتب عليه تعب جسمانى مستديم ليس له أى سبب فسيولوجى ظاهر ، أو غير ذلك من الآثار التى قد يكون بعضها ضارا والبعض لا ضرر منه (٢) .

---

(١) كتاب « الشخصية والصحة النفسية » للدكتورين عثمان لبيب فراج وعبد السلام عبد الغفار ص ١٠٨ « طبعة بيروت » .
(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

ولكى لا نسبب للقــارىء خلطا بين الكبت كسبب والعقــدة النفسية كنتيجة نسوق المثال التالى :

لنفرض مثلا ، أن شابا بعينه وقع فى حب فتاة صغيرة ، ملكت عليه مشاعره . وكانت هناك فوارق دينية وقفت فى طريقه عقبة كئودا ، وبات من المستحيل أن ينتهى الحب بالزواج . هنا يكبت الشاب عقدة الحب من الشعور ويقصيها عنه — لا عن العقــل — فى اللاشعور . وبمعنى آخر ، أنه لم يحل صراعه ، وانما كبت عقدة الحب . وقد يكون هــذا الموقف سببا فى تكوين اضطرابات عصبية بعد فترة من الزمن قد تطول أو تقصر .

ومن ناحية أخرى ، هب أن هذا الشاب راح يحل صراعه مع العقد بموازنته — باهتمام وبدقة — الظروف الجوهرية فيها ، وطفق يحلل الموقف من جميع نواحيه ، ومن زواياه المختلفة ، وأخذ يتحــدث عن الأمر ويتناقش فيه مع أصدقائه ولداته ، ومن ثم يعزم عزما أكيدا على ترك شكوكه العقيدية جانبا ، ويذعن للاشتهاء البيولوجى ، أعنى الحب. فهو اذن قد حل مشكلاته ولم يكبت منها شيئا البتة ، ونظر الى المسألة برمتها باتزان ، وثبات ، ورباطة جأش . وانتهى منها بخير .

الرقيب :

من دأب الطبيعة على الدوام أن تحرس مداخــل العقل الشعورى محاولة منع أشياء عقلية ذميمة أو متنافرة ، وصــدها عن المرور من اللاشعور — أشياء مكبوتة فى اللاشعور منذ زمان مضى . وعن طريق نوع من أنواع الرقابة تحاول أن تقى العقــل الشعورى من عشرات الألوف من المكبوتات الصغيرة الأليمــة ، التى تكون متنبهة دائمــا ومتيقظة ، تجاهد للحصول على اقرار واعتراف بوساطة الشعور . هذه الآلية العقلية الخاصة تعرف بـ « الرقيب » . وانها لفى الخدمة دائما ، وأنها لساهرة دوما ، ومتيقظة للمادة التى قد تمر من خلال البوابات ، اذا واتتها الفرصة .

ويمكن أن تكون معظم الرغبات أو الاشتهاءات اللاشعورية مكدرة ومنفرة ، وربما تكون متنافرة أيضا اذا قدمت الى الشعور بوقاحة وبجرأة وبصورة سافرة غير مستترة .

وعن طريق الحلم نرضى الطبيعة تلهفات اللاشعور واشتياقاته كما أنها ترضى العقل اللاشعورى بأساليب أخرى ، منها : « أحلام اليقظة » أو الأوهام والتخيلات .

وأحلام اليقظة حيلة لا شعورية نلجأ اليها جميعا ، نتخيل فيها اشباع دوافعنا ورغباتنا التى عجزنا عن تحقيقها فى عالم الواقع . وتتم عن طريق الشرود الذهنى وتخيل وهمى لتحقيق رغبات دفينة . ثم هى حيلة يلجأ اليها العقل آليا فى محاولة لفض التنازع الانفعالى أو الاحباط بتصور أوضاع أو أمور خيالية ، لو صح وجودها لزال التوتر (١) .

وليس ثمة فرد الا وينغمس ان كثيرا أو قليلا فى « أحلام اليقظة » أو الأطياف الوهمية كما اصطلح على تسميتها . وكثيرا ما يستسلم بعضنا للأوهام لدرجة تبعث على التراخى والكسل ، وانحلال عناصر الشخصية ، تلك التى تنهض بالصناعة ، وتدعو الى النجاح والرقى . وكثيرا ما نلاحظ هذا على الصبى الذاهل ، الغائب العقل ، الذى يقيم عقله على « أرض الايهام النفسى » . وان كمية معينة من هذا النشاط العقلى مفيدة لكل فرد ، فهى ترشده الى الابتكار ، وتهديه الى الخلق والابداع ، فى الفن وفى الموسيقى وغيرهما .. وفى امكاننا جميعا أن نحصل على درجة ملحوظة من اللذة ، والغبطة ، والرضا ، عن طريق هذه العملية العقلية .. أما اذا استولى هذا الانغماس فى اللذة على التفكير والتأمل ، فستكون النتيجة فسادا فى الطموح ، وسفها يستولى على عقل الفرد عبر حدود منفعته المميزة . وقد تطرؤ على الشخصية

(١) كتاب الشخصية والصحة النفسية ص ١١٦ .

تغييرات خطيرة . ونحن لا يمكننا أن نوصد الباب فى وجـه نشـاط العقل الواعى ونسمح للاشـعور بالعربدة أو بالقبض على السـلطة الكاملة ، فقد يؤدى هـذا الى كارثة ، وقـد يجلب الكثير من المتاعب والصعاب .

الاحـلام :

لقد خدمت الأحلام دائما أغراضا على جانب كبير من الفائدة . حتى لقد كان ينظر اليها فى تاريخ روما القديم واليونان نظرة خشية ومهابة وكانت تعتبر أيضا وهمـا وخرافة . كما كان يرى فيها البعض تنبؤا بما سيأتى به الزمان من حوادث . وكان لكل جيش من الجيوش كتيبة من مفسرى الحلم ؛ فاذا قاموا بأية حملة عسكرية بدون أن يكون فى صحبتهم هؤلاء المفسرين ساء حظهم وذهبت ريحهم .

وان دراسة التاريخ اليونانى والرومانى لزاخرة بالحجج والشواهد على أن الأحلام كانت تدرس بعناية فائقة ، وباهتمام زائد قبل أن يحاط علما بأية مهنة أو أى عمل مهما تبلغ درجتهمن الأهمية . وكان الاسكندر الأكبر قبل أن يقلع بسفينته يستعين بأعظم مفسرى الأحلام فى عهده .

وكثيرا ما لعبت الأحلام خلال تاريخ الانسان دورا عظيما فى مصير الشعوب والأمم . ولقد أثر الجهل والخرافة على معنى الأحلام فى سائر الحقب . فلم تكن الأحلام حتى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والجزء المبكر من القـرن العشرين ، لم تكن تدرس حسب الأصول العلمية . ولم تطبق فى تحليل السلوك الانسانى ودراسة العقل البشرى فى جميع أطواره ومراحله .

وللأحلام طرازان رئيسيان : وهو حلم التجربة ، أو حلم الحالة الشعورية الراهنة ، التى يعيش فيها الحالم من جديد مرة أخرى فى خلال حلم بذكريات أو أحداث مؤكدة أليمة مكبوتة أو منسية ؛ والطـراز

الثانى ، هو حلم اشباع رغبة معينة أو اشتهاءات تهفو النفس اليها ربما يجهلها الشعور .

ومعظم الأحلام تخدم فى الأصل الغرض النافع والمجدى من اشباع الرغبة ، أى أنها ترضى بقدر ما ، وبوسيلة ما ، المشتهيات اللاشعورية للنفس . وقد يكون هذا اشباعا بسيطا لرغبة عند الطفل ، أو ارضاء عاديا للجوع أو الظمأ أو الحرية ، أو الحلم باحدى وسائل الراحة والرضا ، أو يكون حلما له خطة ما لاشباع الرغبة ، ويميل الى اخماد أو تهدئة مشتهيات اللاشعور من حاجات ومطالب بيولوجية (١) .

والحلم اما أن يكون صريحا ومكشوفا فى تكوينه ، أو يكون معناه الحقيقى أو الدافع الجوهرى له مستترا ومكنونا .

وهناك حلم يشبع رغبة الطفل ، اذ يرى فى حلمه تلالا من الحلوى والفاكهة والدمى ، ثم هناك حلم السجين بالحرية ، وحلم المسافر بأسرته ، والجندى بوطنه .

ومحتوى الحلم أو مضمونه يتأثر الى حد بعيد بشخصية الحالم وتركيبه . أما فيما يختص بالأطفال فالحلم لا يهمه أن يستتر أو يستخفى كالحال فى حلم المراهق . فكلما كان الرقى العقلى أقل كان الحلم أكثر ميلا الى الواقعية . ولذلك نرى أن الحلم عند المراهق المستنير أو المثقف يميل دائما الى الرمزية العالية ، أى أن الدافع الحقيقى للحلم اما أن يكون ممعنا فى التستر ، واما أن تصونه الرموز وتحميه مختلف المؤثرات الميكانيكية التى تحرف المعنى أو الشكل .

ونادرا ما نستطيع تذكر الحلم فى صورته الصافية ، الصريحة ، الحقيقية ، كما نراها فى حلمنا بالضبط . أما صيغة الحلم التى نذكرها أو نسترجعها فتسمى المحتوى الظاهر .

---

(١) Interpretation of Dreams, Freud, P. 103-112.

وأما الرغبة الحقيقية الأصلية ، أو المحتوى الكامن للحلم ، فيواريها منهج من الرموز معقد ومشوش .

وأما ما نسميه « الرقيب النفسانى الداخلي » أو ديدبان العقل ، فهو يقوم بالحراسة دائما ، ويسدل الستار على صورة الحلم ، فيحصل بذلك على العثرة (الزلة) التى كثيرا ما تلاحق الحلم . ويميل هـذا المؤثر الميكانيكي ، الذى نوهنا به ، الى وقاية فهمنا وادراكنا للحلم ، ويحجب الصورة الغامضة ، المبهمة عن الشعور (١) .

والمحتوى الظاهر للحلم ، أو تلك الحكاية التى تذكر بعد الاستيقاظ ركب ورتب بحيث تتم الاستفادة ويعم النفع من أربعة مؤثرات ميكانيكية هى : الابدال ، والتكثيف ، والتدريم ، والتنقية الثانوية ، وسنشرح كلا منها بايجاز فيما يلى :

التكثيف : هو الميل الى تركيز الحلم كما يتذكر ، ومزجه فى وقت معا بأفكار الحالم . وهذا يؤدى فى الغالب الى أحلام خيالية وغريبة غير مألوفة .

الابدال : هو أحد المؤثرات الميكانيكية للاشعور . وهو فعـال ومحرف . وأجزاء مادة الحلم القليلة الأهمية مجهدة ومحققة . وهـذا ما يجعل عناصر الحلم الخطيرة وذات الأهمية تغيب عن أنظارنا .

التدريم : أى الجنوح الى الفن المسرحى . هو استخدام الرموز واستعمالها للمنفعة لكى تخفى عن الشعور رغبات أو اشتهاءات خاصة . أو بمعنى آخر ، استبدال الجوهر الخام الكريه للاشعور — بمهـارة فائقة ، وبجمال أخاذ — برموز خاصة تكون فى العادة غير واضحة ، وغير مفهومة لدى العقل الواعى .

---

(١) Interpretation of Dreams, Freud, P. 274-279.

التنقية الثانوية : هى تلك المعـونة أو الاعانة الاضـافية للشعور ، التى تعيـد بناء الحلم فى بعض النـواحى ، حينما يكون الاحساس بالنفور من الحلم مضايقا للشعور ، بالاضافة الى أنه من جهة أخرى ، يؤكد لنا دائما أن الحلم ولو أنه ممض ، متعب ، ليس الا حلما وحسب (١) .

الانسان مكافح دواما :

ان حضارة بضعة آلاف من السنين لم تضف الى أخلاق الانسان وسلوكه الا قشرة طفيفة خفيفة . فهو فى كفاح مرير دائب دائم ضـد البواعث الحيوانية والرغبات الهمجية . وانحدارات ما قبل البشر متأهبة دائما أبدا للبروز من وراء الحجاب الاجتماعى الخفيف . فبوسـاطة الحلم كان للانسان أسهل وأبسط أسلوب للتعبير عن هـذه الشهوات المتأصلة . وكان القمع الضرورى للتهيئة السوية وللاصلاح الاجتماعى الطبيعى أحد المؤثرات والمحرضات الحقيقية للاقتناع برموز الحلم .. فالطفل مثلا ككائن أقل خبرة فى الشئون الخاصة بالأمور الدنيوية ، لا يحتاج الى تلك الأسـاليب الملتوية باللف والدوران حـول قواعد وارشادات اجتماعية .. ولكونه « همجيا صغيرا » لا حاجة مطلقا لتلك الوسائل من التعمية والتستر ؛ فهو لا يمكن أن يصطدم بالشـهوات الفطرية التى يمكن أن تؤثر تأثيرا مباشرا على عقل المراهق .

فالرموز اذن هى التراث المتجمع والمحكم عمله منذ ظهور الانسان.

ولكل عصر مجموعته من الرموز .

ولقد طورت حضارتنا الحديثة الرموز وأضافت اليها رموز العصور الغابرة ، فكان لنا منها مخـزن غنى عظيم فى استطاعتنا أن نختار منه ما نشاء وقتما نشاء . وسنأتى بتفصيل ذلك فيما يلى من فصول الكتاب.

---

(١) كتاب « الاحـلام والرؤى » للمؤلف ـ سلسلة « اقرأ » رقم ١٦٦ .

والحلم الحديث غنى بالمادة الرمزية التى يمكن أن تتأثر عصور التاريخ السحيقة ، وترجع بنا الى الصين القديمة ، ومصر ، واليونان ، والرومان (١) . وكثيرا ما نجد من الأعمال الفنية ما يعبر بهذه اللغة الرمزية بوضوح أكثر مما تعبر به الأعمال المكتوبة . فمن الطبيعى اذن أن تكون أحلامنا مركبة من موضوعات تقوم دائما مقام أشياء خاصة معينة فى حياتنا .

أما الوسيلة الأخرى التى يمكن أن ترضى اللاشعور فهى عن طريق العصاب . وهو مؤثر آلى يتم بوساطته ارضاء العقل اللاشعورى ، واشباع شهواته عن طريق أعراض خاصة وأمراض وهمية (٢) . وفى العصاب ثمة نوع من الشهوات المتدفقة ترجع الى أيام الطفولة المبكرة .

وكما يشبع الطفل اشتهاءاته ونزواته بالميل الخبيث العجيب الى الآخرين ، كذلك يفعل الفرد العصابى بوساطة شكاياته الذاتية .

أما كبت الصراع الذى لم يجد حلا فانه يمهد السبيل للشكايات العصابية فيما بعد فى الحياة . وفى العصابات الناشئة عن الحرب ثمة كبت للخبرات المؤلمة أو الثائرة التى تبرز فيما بعد فى صورة شكايات عصابية غير صريحة . ويبين الحلم فى هذه الحالات الشهرة والتفوق ، ويحاول أن يقوم الى العقل الشعورى طبيعة الاشياء الموجودة المكبوتة

وللعصاب درجات مختلفات . بعضها راسخ حتى لقد يحدث للشخص تغييرات خطيرة يتسبب منها فى بعض الاحيان حال من حالات المرض العقلى .

* * *

(١) اكتاب « الاحلام والرؤى » .

(٢) The Mind and its Workings, by Dr. C.E. Joad, p. 73-74. Eighth impression 1935.

المبادىء :

من كل هذا الذى أسلفنا القول فيه ، يمكننا أن نرى أن العقل فى حقيقة الأمر ميدان حرب تتصارع فيه قوتان هائلتان .. انه صراع بين ما قبل الانسان الأكثر بدائية ، وبين القـوى أو الدوافع الانسـانية الاجتماعية . والأداة العقليـة البشرية تحدث مجرى ثابتا ، أو تفريغا للطاقة . والغرض من هذا هـو اشباع مبدأين عظيمين على أساسهما كان الوجود ، وكلفت الحياة ؛ وأى شىء يدخل فى حياتنا انما يعتمد على هاتين القوتين ، ألا وهما : « مبدأ اللذة » و « مبدأ الواقع » .

يعبر المبدأ الأول عن الصورة الأصلية للفعالية العقلية المشـاهدة فى العصور المبكرة جدا من الوجود الانسانى . وهذه الصـورة هى المطالبة على الدوام وبالحاح بامتاع الرغبات لكى تمد اللاشعور باللذة، بغض النظر عما يتأتى بعد ذلك من تبعات ، ومهما تكن العـواقب . وأقرب مثل لهذا ما تشاهده فى الطفل الذى لا يهمه الا رغباته الخاصة فحسب ، والحاحه الدائب فى طلب ارضائها . وذلك فى صورة غذاء ، أو راحة ، أو أمومة . ولنذكر جيدا أن ليس فينا من لا تستعبده هـذه السمة . وبملاحظة دقيقة يمكننا أن نرى هذه الشهوات الطفلية تستحوذ على المراهق بشىء من التحوير والتعديل .

وللوقاية من هذه القوى التى تحمل المرء على الاذعان لمثـل هذه المؤثرات يتحتم عليه أن يقيم حدا ويبنى سدا لتعويض هذه المشتهيات الطفلية ، حتى ولو لم يكن متحققا مما تكون أكثر هذه القوى . ولكنه مع ذلك يفرض ستارا واقيا لصد الخطر الموجود فى كل آن .

وأما « مبدأ الواقع » من جهة أخرى ، فلديه من أجل موضـوعه التكييف السوى ، والتـوافق الطبيعى ، للتركيب العضـوى لمختلف الحقائق فى بيئته ، سـواء أكانت مادية أم روحانية . . ولكى يظـل حيا يجب عليـه أن يتبصر ويسلم بمطالب الجماعة ، وبقـوى الطبيعة ،

وبالعوامل والمؤثرات المعقدة الكائنة فى حياته ، والمحيطة به ، وبيئته .

والعقل والمنطق هما الدعامتان اللتان يرتكز عليهما هذا المبدأ .

والتحليل النفسى اذن ، كقاعدة أساسية ، هو : **الكشف والتنقيب عن اغوار اللاشعور فى العقل ، والسعى فى البحث عن اشياء عقلية مكبوتة ، وتقديمها الى الشعور ..** وبهذه العملية الاستكشافية يجدر بنا أن نعود ، فى كثير من الأوقات الى عهد الطفولة . ويجب أن يؤدى البحث والتقصى الى أشياء مكبوتة منذ زمن ورسبت فى العقل .

وأسلحتنا الرئيسية التى يمكننا أن نبحث بها عن هذه المكبوتات هى : **الحلم ، والعملية التى تسمى « التداعى الحر المطلق »** ، ومعناه بكل بساطة تلك الفكرات التى تخطر على البال حين يكون ثمة ايحاء . ويكون الفكر مسموحا له بأن يشت ويهيم على وجهه ؛ ويكون الفكر موجها ليبرز بنفسه ما فات من حياته ، لا سيما تلك الفترات التى يكون قد وقع له فيها حادث مؤلم أو شاذ .

وبعد أن تستبين هذه الأشياء العقلية المكبوتة ، وبعد أن تحل ، تقدم الى الفرد فيأخذ فى التأمل والنظر فى الأمر برمته نظرة مختلفة متزنة ، بروح رصينة ، وبجأش رابط .

وباعادة تنظيم « مبدأ الواقع » بالطريقة التى يتطلع بها الانسان الى الأشياء ، سيكون فى امكاننا فى كثير من الأحيان أن ننحى عن أنفسنا صفات عقلية مضنية . ولا يشمل هذا بالطبع الا الحالات العقلية التى لم تؤسس على تغيرات ثابتة فى المخ ، وفى العصابات التى لم يرتد بها الفرد الى المستوى الطفولى أو الصبيانى لكى يضمن لنفسه اشباع مشتهياته اللاشعورية .

هل تعرف نفسك ؟

كيف تعرف نفسك جيدا ؟ ..

ان أكثر النـــاس يعرفون عن الآخرين ممـــا يعرفون عن أنفسهم . وانهم ليستطيعون ، بقدر معقول من الدقة ، أن يلمسوا فقط القـــوة والضعف فى أصدقائهم . ولكنهم مع ذلك لم يحاولوا اطلاقا تحليـــل ما فيهم من نقص وقصور وملكات وامكانيات .

والرجل العادى يعرف عن سيارته أكثر مما يعرف عن نفسه . فهو اذا وجد سيارته لا تعمل كما ينبغى ، يشرع فورا فى دراستها ليعـــرف السبب ويصلحه . أما اذا كانت الآلة البشرية لا تؤدى عملها كما يجب ، ولا تقوم بوظيفتها كما ينبغى ، فاللوم هنا يقع كله على الدهر ، أو الحظ ، أو القسمة والنصيب ، أو الوراثة ، أو البيئة ، ومن ثم يكون الاستسلام والاذعان للأمر الواقع . مع أن أسباب سوء الصحة والاخفاق والتعاسة والعجز ــ كحقيقة واقعة ــ يمكن معرفتها والتغلب عليها كسبب اختلال السيارة سواء بسواء .

وهناك باعثان رئيسيان ترجع اليهما معرفتنا بالقليـــل جـــدا عن أنفسنا : الباعث الأول هو حيرتنا الشديدة أمام تعقيد الشخصية وحذقها فى تضليلنا والاحتيال علينا . وتفاعلها مع عوامل كثيرة منها : الوراثة ، والعاطفة ، والتحيز ، وتأثيرات تجارب الطفولة ، وغيرها مما يبدو وكأنه واجب ممقوت أو فرض كريه لا أمل منه فى ريادة أو استكشاف هـــذه الأعماق السحيقة . فنحن نجفل مرتاعين من عظم الاتساع الذى يواجهنا ، ومن عدم القدرة على الاضطلاع بالأمور الكبيرة ، فنقف موقف ملاحى خريستوف كولومبس حين أجفلوا من امتداد اليم الفسيح ، المجهول ، اللانهائى ..

خوفنا من انفسنا :

والباعث الثانى هو اننا نخاف من نتائج التقدير الصادق ، ونسىء الظن بـ « التقييم » الصريح . فالانسان الذى قد يتاح لنا أن نلقاه أو نصادقه — هذا المخلوق الذى هو أنا — ربما يكون مختلفا فى الحقيقة عن المخلوق الوهمى الذى أوجدناه وأبدعناه فى مخيلتنا يصـــدم زهونا وغرورنا ، ويستثير مشاكل النظام أو التأديب التى تؤثر عدم مواجهتها.

وهــذا الشخص الوهمى ، الذى ليس له كيان أو وجود ، والذى نطابق به أنفسنا ونثبت به شخصيتنا ، له فى الغالب بعض المشاركة مع الذات الحقيقية التى نستهين بها ونخشى معرفتها . بل ان أكثرنا لا يمكن أن يتحقق من نفسه اذا التقى فى الطريق بذاته الحقيقية ، أو اذا لبى دعوة من نفسه لتناول طعام الغذاء حيث يدور خلاله حديث ودى .

أسباب اخفاقنا :

ان هذا الشخص الزائف ، غير الحقيقى ، الذى يقوم مقام الذات ان هو الا تحقيق لرغبة طفيلية . اذ يشعر الفرد باحساس بالنقص وشعور بالدونية . فيشرع فى رسم شخصية خيالية خالية من الخطأ ، معصومـــة من الضعف . وايجاد أو خلق هذا الشخص الوهمى لا يعالج بأية حال مركب النقص ، وانما يعوضه عنه بعض الشىء ويهيىء له سبيل الهروب من الواقع الملىء بالفشل والنفور ، والشقاق ، والضعف ، وغير ذلك من صفات يمكن أن يقع اللوم فيها كلها على عوامل أقوى منه خارجية ، أو حوادث عرضية . وهــذا الشخص الخيالى الذى نعرفه كما نعرف أنفسنا لا ينبغى أن نلومه ! .. ياله من مسكين ! .. لقــد أسيىء فهمه .. والناس لا يعرفون قيمته ولا يقدرونه حق قدره .. انه سيىء الحظ دائما ، والعالم كله ضده .. مع أنه لو أمكن أن يمزق هذا الوهم أو هذا الشىء المسربل بالوهم ، وعاد الى الذات الحقيقية ، لوجد أن كل هذه الأسباب كائنة فيه وكلها يمكن علاجها .

وهذه الحالات الخارجية كلها ان هى الا تجسيم لذاتنا ، أى أنها تجعل المثى جسما وتجعله مرئيا لنفسنا الذاتية . فنحن الذين نخلق حظنا . ونحن الذين نبنى عالمنا . وشهرتنا أو خمولنا .. سعادتنا أو تعاستنا .. نجاحنا ورفاهيتنا ، أو اخفاقنا وقصورنا .. كل هذا فى أيدينا نحن . انها ليست نتاج الحظ أو البخت أو المصادفة . وليست أحكاما لارادة مقدسة . وانما هى نتاج قانون مقدس — هو قانون العلة والمعلول — والعلة يجب أن يبحث عنها فيك أنت ! ..

ان هذا المبدأ قاس عسير . ولكنه فى الحق مبدأ أصيل ، قويم سليم ، لا مطعن فيه .. فمن الأشياء المرغوب فيها والتى لا تخلو من اللذة والبهجة أن تلوم شخصا آخر . ولكن هذا لا يوصلنا الى شىء ولا نكسب منه أى شىء . فاذا نحن كشفنا عن الأسباب أو العلل التى فينا، وحددنا مكانها ، وعينا موقعها ، ثم صححنا هذه الحالات وقومناها، فسنحصل على نتائج باهرة .

ان الآخرين لا يدرون شيئا عن هذه النفس الوهمية . انهم يرون النفس التى لا ندرى عنها شيئا . انهم ربما يخفقون فى رؤية امكانياتنا وأهليتنا وما خفى فينا من سمو وعظمة ، ولكنهم على علم ودراية تامة بأخطائنا ، وضعفنا ، وغرائزنا ، وشذوذنا ، وخواصنا الظاهرية .

وأنت اذا كنت تملك عملا وكنت تجد أنه لا يسير وفقا لما ينبغى ، أو كنت ترى أنه لا يبشر بالخير كما كنت تؤمل ، فانك لا تتوانى عن تحليله كى تكشف موضع الخطأ والخطل فيه . فلماذا اذن لا تحلل نفسك ؟ ..

ان أول فائدة لمثل هذا التحليل هو أن الفرد يعرف تماما مكانه فى الوجود ، على وجه البسيطة .. فيجب أن يسأل نفسه دائما : لماذا يكون وجودى فى الخليقة ؟.. هل أنا مجرد شاغل لمكان شاغر فى موقف « الأوتوبيس » ، أو هل لحياتى مبرر أو مسوغ ؟ . ما برنامجى ،

وما طريقة تحصيلى وهدفى فى الحياة ؟ وتجاه هذا الهدف هل حققت تقدما حقيقيا فى خلال فترة معينة فى الاثنى عشرة شهرا الأخيرة مثلا ؟ .. واذا لم يكن ذلك ، فما الذى وقف فى طريقى ؟ ..

ان كل حياة يجب أن يكون لها هدف معين ، محدد . والعالم ملىء بالمنساقين مع التيار على غيرهدى .. انهم يدلفون الى الحياة بحالة يائسة، بائسة ، تستحق الرثاء .. لياليهم لا تتردد فيها أغنية العمــل الفذ الذى يرضى النفس .. هم راضون قانعون بأن يملأوا فراغ يومهم بالاستمتاع بساعة نزوة طائشة ، ما دام لديهم المكان الذى يأوون اليه ، وينامون فيه .. انهم مجرد حيوانات تساق الى حيث لا تدرى .. يحيون حيــاة لا معنى لها ولا طعم ، دون ما هدف يستهدفونه ، أو غرض يقصدونه .. انهم كالسفينة تتقاذفها التيارات ، وتعصف بها الأنواء ، دون أن يكون لها قائد أو ربان .. ليس لهم مرفأ يهتدون اليه ، أو ملجأ يلجأون اليه ، أو بصيص من أمل ينير لهم الطريق السوى .. ليس لهم نهج أو هدف أو ارادة تقودهم أو تدفعهم بعيدا عن التيارات المنــاوئة التى تعترض طريقهم — وتهديهم الى الممر الذى يقود الى مرفأ الأمان ، والسلامة ، والاطمئنان .

هل لحياتك هدف ؟ :

يجب أن يكون لحياتك تصميم هندسى . ويجب أن يكون العمــل والدراسة واللهو فى كل يوم من أيامك موجهــا الى تحقيق هذا النموذج الذى رسمته لنفسك ، فتغدو الحياة ذات غرض وذات نفع ..

ويغرينا الهدف فيجتذبنا الى أحسن وأعظم الجهود .. ويستحثنا على الجليل من الأعمال .. ويثير فينا الهمة الباسلة ، والعزيمة الصادقة التى تليق بكل بطل شجاع ..

هل تعرف نفسك ؟ .. ما منهاجك ؟ .. وما هــو التقدم أو النجاح

الذى حققته فى سباقك أو جهادك فى سبيل الوصول الى الهدف ؟ .. واذا لم تكن حققت نجاحا ، فما السبب ؟.. ان تحليلك لنفسك سيساعدك فى الاجابة على هذه الأسئلة التى لها أهمية أساسية فى توجيه حياتك توجيها سليما لائقا ، وفى تنظيم ميولك واهتماماتك ونشاطك اليومى تنظيما سديدا .

وثمة فائدة عظيمة أخرى للتحليل النفسى ، هى أنه يساعدنا على اظهار أخطائنا . ويكشف لنا عن موطن الضعف فينا ..

أى نوع من أنواع الناس أنا حين أظل مستمرا فى خداع نفسى ، وأقف « ساخرا مستهزئا بنفسى ؟ » .. واذا أمطنا اللثام عن ومض الحقيقة الساطع فما أكثر النقائص والعيوب ظهورا ووضوحا ؟ .. وما الذى يجعلنى أدفع الناس عنى بدلا من أن أجتذبهم الى وأستميلهم؟. ولماذا أخفق فى حين أنى خلقت لأنجح ؟ .. ولماذا أرانى تعسا ، شقيا ، غير موفق فى حين أنه يجب أن أكون سعيدا ، ناجحا ، موفقا ؟ ..

فلننظر مليا الى بعض الأخطاء الشائعة التى نعانى منها الكثير . والتى قد تكون السبب فى اخفاقنا وتعاستنا ونحن فى غفلة عنها ، أو غير منتبهين اليها :

أول هذه الأخطاء هى الأنانية ، وحب الذات . وهؤلاء الذين يعانون من الشعور بالنقص أو الدونية يهمهم جدا — من باب التعويض — أن يعلقوا أهمية على الذاتية . فتجدهم فى حديثك معهم يتكلمون بحماس عن أنفسهم ، عما يحبون وما لا يحبون . وعن تجاربهم وأصدقائهم وأعدائهم وانجازاتهم . واذا غيرت الحديث وحولته بعيدا عن ذاتيتهم تجدهم بكما لا ينطقون ، صما لا يسمعون ، وتجدهم دائما يسرفون فى استعمال الضمير الشخصى ، . « أنا فعلت هذا ، أنا عملت ذاك ، أنا قلت هذا ، أنا أحب هذا » وغير ذلك مما يثقل على الأذن سماعه .

ان من يصطلى بشمس الملق الذاتى ، انما يصطلى وحده. أما الرجل

الذى يكسب الأصدقاء ويحقق تقدما ، ويحرز نجاحا فهو الشخص الذى يبدو عليه من سماته كأنه غافل عن نفسه ، غير منتبه اليهـا . ويوطن النفس على الاهتمام بالآخرين بصدق وشوق . انه يجيد الاصـغاء ، ويحترم آراء الآخرين وأفكارهم . ويعظم الكبير ويقدره ، ويعطف على الصـغير ويسانده . وهو يسعى جهـده ليخدم ، ويساعد ، ويعاون ، ويتحدث بخير عن الآخرين .. فهو على العموم محبوب من الجميع .

دع حياتك تفيض الى الخارج :

تجنب التركازية [1] .. أى الا تكن أنانيا . وحاول أن تعرف نفسك وتفهم مقدار قوتك ومدى ضعفك .. ثم دع الحياة تنساب منك الى من حواليك .. ولا تكن مستبطنا [2]. « ولا تقف ماليس لك به علم ». ابن عالما من الميول الرحيبة ، والاهتمامات الفسيحة ، والرغبات العريضة .. أنشىء مع الآخرين علاقات طيبة تنطوى على الاخاء ، والحب ، والمودة.. واسع الى مد يد المساعدة والعون الى كل محتاج .. وجاهد فى أن تجعل الدنيا من حولك أكثر رقة وأكثر لطفا ، وأكثر آدمية ، لتغدو أكثر جمالا مما كنت تراها .

والانفعـالية ، أو اثارة الاحساسات والعـواطف ، من الأخطاء الانسانية المتفشية بيننا . فنحن بدلا من أن نقتنع بالعدول عن أحـد المواقف ، نميل الى المقاومة بطريقة عاطفية ، لا عقلية .. ونحن محكومون أيضا بآرائنا المبتسرة ، وأهوائنا ، ومخاوفنا ، ومشاعرنا السلبية .. أما العواطف الحقيقية ، السليمة ، التى لا زيف فيها .. وأما الحب ، والتآلف ، والعطف ، والحنان ، والابتهاج ، وتقدير الجمال ، والاقرار بالفضل ، وعرفان الجميل — فهى من مباهج الحياة ، بل هى شذى الحياة وعطرها

---

(١) التركازية : تعبير نفسانى معناه التركيز على الذات أو الانا وهى نفعال من ركز .

(٢) الاستبطان : الفحص عن باطن الشىء .

الفـواح .. وحتى هذه الصفات أيضا تحتـاج الى أن تتخلق وتمتزج وتتجاوب مع الادراك ، والحكم ، والذوق السليم . وأما الانفعـالات السلبية ، والخوف ، والقلق والحسد والغيرة ، والبغض ، والاكتئاب ـ فهى تسمم ينابيع الحياة ، وتؤدى الى الشقاء ، والبؤس ، والفاقـة ، والمرض والاخفاق ..

والتعصب ضعف آخر عند كثير من الناس . فنحن كثيرا ما تتسرع فى الحكم على الآخرين وادانتهم حتى فى تلك الأخطاء التى تقع نحن أنفسنا فى ارتكاب معظمها ..

والثرثرة ، والشائعات الكاذبة لا تنتشر ولا تشيع الا عن طريق نفوس مريضة الى نفوس أخرى أعياها السقم والتفاهة ، وجمع بينهـا التشابه فى الأذواق . والثرثرة نوع من أنواع التعويض . فنحن اذا علمنا بضعفنا ومرض أنفسنا نبادر فى السعى الى هدم الآخرين بالحكم الخاطىء المؤذى سواء بالقول أو الفعل حتى يمكننا أن نغسل نفوسنا الأثيمة فى فيض دافق من الشعور بالراحة وبالتهنئة الذاتية . هذا الشعور الذى يجب أن يجعلنا نشعر على الأقل بأن همسنا الفاجر المشين ، وهمزاتنا الخسيسة ، قد ووريت فى التراب ، واندثرت فى الرغام .

وتأكد أن النمام ، أو الواشى ، أو كاشف المساوىء انما هو متعصب للخطأ الذى يقتنص به من الآخرين . بل انه عصابى [١] مسكين ، عليل يعانى رغبات مكبوتة (٢) .

فاذا كنت أحد تلك الكواسر الآدمية التى تقع على الجيف ، فكن قاسيا أشد القسوة مع نفسك ، وأقلع عن هذه العادة المرذولة . « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه » (٣) .. اقطع الحديث وقف

(١) العصابى : المريض باختلال الاعصاب .
(٢) راجع الفصل الاول من الكتاب .
(٣) سورة الحجرات آية ١٢ : سورة ٤٩ .

فى نصف الجملة وغير الموضوع . واذا أنت لم تستطع التحدث جيدا عن شخص غائب فتحاش الكلام كلية . ولا تسىء الى الآخرين بالتحدث عنهم **بالسوء فتلطخ سمعتك ، وتلوث شخصيتك ، وتجرد نفسك من الآدمية** ومن كل الخصال الحميدة ، ومن المثـل السامية ، وتهبط بنفسك الى مستوى الشخص الذى تذمه وتستقبحه ..

تجنب ذلك الميل الوبائى الضار ، وهو عدم التسامح الذى يقودك الى الشـعور بأنك قـد جعلت من نفسك رقيبا على عادات الآخـرين وخصالهم ، وأفكارهم ، وآدابهم ، وسلوكهم ، وتصرفهم .

دع الآخرين يعيشون فى ضوء ذاتهم ، وفى جوهم الخاص ، حسبما يشاءون . وكن فى نفسك .. فلديك من الأعمال والشئون ما فيه الكفاية لتوجيه حياتك . ومن الغباء وعدم الذوق أن تحاول اكراه الآخرين على احترام آرائك ، أو أن تفرض عليهم صفاتك وتصرفاتك أو معتقداتك.

لنعش ونترك سوانا يعيش ، لتطول أعمارنا وتكون أيامنا موصولة ببريق الرقة واللطف ، ورائحة الحلم والأناة الذكية ، وعطـر التسامح والسماحة .

ابحث عن ذاتك الفضلى :

ان هذا التقدير الذاتى الذى استحثثك عليه. وهذا التقييم الصحيح للنفس والرفع من شأنها ، يخدم غرضا آخر ذا أهمية .. انه لا يكشف عن أخطائنا التى نسعى جهدنا الى تصحيحها واصلاحها فحسب ، ولكنه يكشف أيضا عن الامكانيات المغمورة للنفس والروح من أجل حيـاة أرحب وأخصب ، وأكثر وفرة ، وأعظم سعادة .

ان فى ذاتنا الخفية لقوى يمكنها أن ترفعنا الى أسمى مراتب التحصيل. وانه لترقد فى ذواتنا اللاشعورية مخازن واسعة ومستودعات غنية بالكنوز الذهبية ، والذخائر النفيسة . فاذا نحن استطعنا أن نبلغ هذا الحد من

الكمال فى الحياة وأبرزناه أو حولناه الى تعبير عن النصر والظفر ، أمكننا أن نصل صعدا الى المجد ، ونرتفع الى حياة خصبة رغدة .

ان الصحة والسعادة والانجاز والعمل الفذ والنجاح والقدرة — يمكن أن تكون كلها لنا وملكنا — فبذور هذه الاحتمالات والامكانيات موجودة فى طويتنا .. فى ذات أنفسنا . فلنبحث جادين عن هـذه الذات العليا . ونتوجه بها منطلقين تجاه الحقول الخضراء ، والحدائق الغناء ، والمروج الفيحاء .. الى قمم الوجود المشمسة ، المتوجة هاماتها بأكاليل الغـار والانتصار .

الدوافع المخبوءة

لقد كان قليلا ذلك الذى فهمناه عن اللاشعور وصلته بالأحلام ، وعن الجنس وظواهره العقلية العجيبة ، قبل أن يبدأ سيجموند فرويد عمله العظيم . فلقد أوضحت دراسة التطور العلاقات التى بين كل المخلوقات الحيـة ، وتماثل البنـاء التشريحى بين كثير من الأجناس . ولا يزال علم النفس يعوزه بعض استكشافات لتوطد أركانه نهائيا على أساس من نواميس ثابتة ، وليتتبع النمو التدريجى للعقل من بسيط الى مركب .

ومما يجدر بالذكر أن الدكتور بريور الذى عمل معه فرويد أول الأمر فى « العلاج بالتحدث » لاحظ بعض أعراض شاذة فى حالة امرأة شابة ، عزاها الى الهستيريا . وعجز عن ازالة هذه الأعراض باستخدام التنويم المغنطيسى ، الذى كان يزاول فى العصور القديمة بتوسع أكثر من الآن ، وكان شائعا اذ ذاك فى صناعة الطب ، وأخذت حالتها تزداد ســوءا . ولاحظ الدكتور بريور أن مريضته فى حالات « ذهولها » تغمغم مـع نفسها . فجعلها تكرر الكلمات التى تفوهت بها ، وبهذه الطريقة علل الباعث على الأفكار التى تسلطت على عقلها حتى توالدت . وكان الأثر لمنشأ هذه الأوهام والتخيلات التى تسلطت على الفتاة هو فى الواقـع وجود « الدوافع المخبوءة » المشتركة فى مظاهر اللاشعور التى تفوق الحصر فى علاقاتها بالحياة اليومية ، وبالحالات العقلية المرضية .

وعاد فرويد ، الذى كان يدرس فى ذات الوقت على العالم الشهير شاركو ــ الى فيينا ليلتقى بالدكتور بريور ، الذى كان يستعمل حينذاك « طريقة التفريغ ». وظهر لفرويد أن بريور لم يفهم تماما علاقة هــذه الطريقة بعلم النفس العلاجى ، فأقنعه باتمام أبحاثهما فى الاجراءات التى ابتكرها حديثا . ومع ذلك فقد أضاع بريور بعض حماسته بخصوصها.

ولم تتزعزع ثقــة فرويد فى كشفــه ولم تفتر همته ، فواصـــلا

استقصاءاتهما مدة من الزمن تراءى لهما فى نهايتها اقامة الدليل على قيمة كشفهما . وانتهيا الى نتيجة هى أن العاطفـة المحبوسة فى مريض اذا ما عوقت فى طريقها الى الافلات الصريح ، فانها تتحول الى أعراض شاذة اما فيزيقية ، واما عقلية .. وبملاحظة مرضاهما فى عيادتهما ، وجدا أن الأعراض كثيرا ما يكون لها صلة ببعض حادثات فى حياتهم . وقادهما هذا الى الاعتقاد بأن الاختبارات المرضية كانت تتعلق بأخرى قبلها . وتلك التى كانت قبلها ليست فى حاجة الى الباثولوجية فى طبيعتها . وأن التجارب التى سبقتها زودت المصادفة الباثولوجية الأخيرة بخلق عقلى.

وبعد أن تعاون فرويد وبريور معا مدة من الزمن فى هذه الملاحظات والتجارب ، انفصل أحدهما عن الآخر ، فقد دب الخلاف بينهما (١) .

وهكذا مضى فرويد قدما بمفرده ، ثم نشر تطبيقا عمليا من نتـاج مجهوده : بسماحه لمريضه أن يتكلم بكل ما يدور بخـلده ، وبعـد ملاحظة بالغة منتهاها فى الدقة ، اقتنع بأن أى شىء يحدث للمريض له صلة مباشرة أو غير مباشرة « بجرح » ما فى الا شعوره .

وفى عام ١٨٩٥ ألقى فرويد أولى محاضراته عن اكتشافاته التى قدر لها أن تكون بشيرا بميلاد التحليل النفسانى (٢) . ولقد تبعه بادىء الرأى ثلاثة نفر من الوسط الطبى هـم : أدلر ، وشتيكل ، وسادجر . ولـكن فى سنة ١٩٠٠ بدأ يونج وثلة صـغيرة من أتباعه الفيزيقيين يستعملون الطريقة الفرودية بعيادة طب الأمراض العقلية فى زيوريخ . وبعد ثمانية أعوام ، وبناء على دعوة يونج ، قام أول مؤتمر لمدرسـة الفيزيقيين هذه فى سالزبورج .

عنـد ذلك أخذ الطلبة الجادون ذوو الضمير الحى يدخلون الميدان أفواجا . وظهرت المؤلفات الفكرية والانتقادية تحمل طابعى مقـدرة

---

(١) كتاب « معالم التحليل النفسانى » لسيجموند فرويد ، ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى . ص ١٦ — ١٧ — ١٨ — ١٩ .

(٢) نفس المرجع ص ١٨ .

المدرسة وحمية الرائد . ومن ميدان علم النفس العلاجى انتشر علم التحليل النفسانى ، وامتد الى ميادين علم الأساطير والفولكلور .. وبدأت تظهر الشروح التى تعوزها التفسيرات السيكولوجية . ثم بدأت تطغى على أساطير الجنس البشرى وخرافاته . واتضح أن رغبات السلالة البشرية التى كانت تتوق الى الرضى خلال العصور جاء وضعها فى الخرافات والأساطير ، وأنه اذا فهم الشخص المفتاح السرى الذى يمده به التحليل النفسى ، لأمكنه أن يفسر معنى كل تلك القصص القديمة . فقد قال علماء التحليل النفسى ان عواطف البشر لونها فنان أعمى على لوحة من الفكر .

ومن المعروف قطعا لدى علماء الانتروبولوجيا (١) أن الرمز لعب دورا هاما فى الانتاج البدائى لعقل الانسان . كما بينا دلك باسهاب فى الفصل الأول . ونعود فنقول ان طريقتنا اليوم فى التعبير عن الفكر قائمة على أساس صورة من الرمزية ؛ فالمهندس الذى يتصور تجويف مدخنة، والموسيقى الذى يوفق السيمفونيات السماوية ، والفنان الأديب ، كل أولئك يستعملون الرمز كثيرا . وقد أشار أندريه تريدون فى أحد مؤلفاته الى أن : « لغة جميع الشعوب رمزية ، ودائما ما يفرض الانسان فى كلامه مقارنات بين مظاهر ثابتة فى الطبيعة وأجزاء من جسم الانسان. فنحن نتكلم عن فم النهر أو الكهف ، وعن أعماق الأرض ، وعن قمة الجبل أو سفحه .. ونقول ان فى البطاطس عيونا ، وأن اللون الدافىء ، وحقائق جافة ، وأننا نشم رائحة التعب ، وغير ذلك » (٢) .

كيف دخلت هذه التعبيرات فى كلامنا ؟ .. وكيف سبر علماء التحليل النفسى صلتها بأسس تفكيرنا ؟ ..

---

(١) علم التاريخ الطبيعى للاجناس البشرية .

(٢) وهناك الكثير مما يصادفنا فى حياتنا اليومية من هذه الاسماء والتعبيرات المألوفة والمتداولة بيننا. كراس البر ، وفم الخليج ، والكوبرى الاعمى ، وعنق الزجاجة ، وعين الحقيقة ، وغيرها .

لن نحتاج الى كبير عناء لنعرف أن هناك معنى عميقا وراء كل هذا الدوران فى كلامنا . ان علاقة ما ، ليست معروفة الى الآن ، كانت متوثقة بين عناصر ثابتة موجودة فى اللغة وفى الفكرة البدائية عند بنى الانسان .

والانسان يملك فى داخل نفسه اتجاهين : يوصف أحدهما بالمتقارب أو المائل نحو المركز ، والآخر بالبعيد أو بالمنحرف عن المركز . الأول يميل الى نقله الى الأمام ، والآخر يظهر رغبة صريحة للرجوع الى حالة بدائية . ونرى هذا الاتجاه — مثلا — فى البناء التشريحى للانسان حيث تثابر أحيانا بعض أعضاء جرثومية ثابتة على النمو ، يشيع التعب العظيم فى الانسان .

ولقد سرد ميشنكوف فى مؤلفه القيم فى « طبيعة الانسان » أمثلة كثيرة عن النشاط الموجود فى تشريح الانسان ، وهل يمكننا أن نشير الى « النشاز » فى بنائه العقلى أيضا ؟ .

ان نيتشه ، الذى سبق علماء التحليل النفسى ، تنبأ بكثير من كشوفهم فذكر فى أحد مؤلفاته : « فى نومنا ، وفى أحلامنا نمر بجميع أفكار البشرية القديمة . وأعنى بهذا أن الانسان يدرك فى أحلامه ما أدركه فى أثناء حالات اليقظة منذ آلاف السنين .. فالحلم يرجع بنا الى حالات قديمة من التهذيب الانسانى . ويقدم لنا الوسيلة لتفهمها بطريقة أجدى وأحسن » .

ولقد أبدى هذه الملاحظة أخيرا علماء النفس المشتغلون بالفروض الحديثة التى أظهرتها نظريات فرويد وحسنتها ، كما أنها — الملاحظة — قررت ما لهذا الفيلسوف الشهير من بعد نظر ونفاذ بصيرة .

ولا يخفى أن لكل شخص طاقة جنسية يطالب بارضاء رغباتها . واذا لم يقدم لها هذا الارضاء بوسيلة سوية فان الميل الى الرغبة يكون

فى حل من التسرب من أضعف نقطة فى خط التقييد . واذا لم يتم هذا أيضا ، فهناك تسليم من العقل لما يسميه علماء التحليل النفسى بالتعالى أو التسامى . هذا لأن الرغبة تتسرب من خلال قنوات لا يستعملها العقل لمنفعته حين تكون الرغبة قادرة على الارضاء بطريقة سوية . ومن قوانين الطبيعة أن القوة تميل الى قهر العوامل المكبوتة فى بيئتها بغض النظر عما تكون عليه هذه العوامل . وليس من قوة فى الطبيعة أعظم ولا أكثر أهمية — حسب الترتيب البيولوجى للاشياء — من الطاقة الجنسية .

يقول العالم النفسانى المعروف كوريات : « ان الأفكار اللاشعورية موجودة وفعالة فى الفرد العادى كما هى فى المريض بالأعصاب . والأفكار اللاشعورية أو الآراء والخواطر غالبا ما تظل هكذا ، لأن هنالك قوة يطلق عليها المقاومة تمنعها من أن تصير شعورية . وعمل الكبت كثيرا ما يلتقى بالاخفاق وعدم التوفيق ، لأن الدوافع المكبوتة — الرغبات — والعقد النفسية تواصل البقاء فى اللاشعور ، ومن ثم تبعث الى الشعور بديلا متنكرا فى هيئة أعراض عصابية » (١) .

* * *

حينما ينقضى النهار وما فيه من مؤثرات ، يدخل الفرد فى دولة النوم ، فتتسلل الرغبات اللاشعورية لتمثل دورها فى هيئة حلم . ولكن هنا ، كما فى حالة اليقظة ، يكون الرقيب متنبها يقظا . وبالتالى تسدل على المشهد ستار الرمزية لتخفى طبيعة الرغبات الواقعية التى تعلن عن نفسها .

وفى هذا الصدد كتب أحد تلامذة فرويد التقرير الآتى :

« ان الرقيب هو الذى يجبر الأحلام على اتخاذ لغة الرمزية الغامضة لكى يكفل امكان ترتيب رواية المادة الجنسية فى الأحلام . فاذا أقنع الشخص نفسه بفائدة الرمزية العظيمة فى ترتيب رواية المادة الجنسية فى

(١) Abnormal Psychology, p. 18 Coriat.

الأحلام ، لابد أن يصطدم بالسؤال عما اذا كان كثير من هذه الرموز تبدو كأنها حروف اختزال بمعنى ثابت لكل الحالات . ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن هذه الرمزية لا تتعلق بالأحلام فحسب ، ولكنها تتعلق أيضا بأفكار لاشعورية لأناس ، وأنها لكائنة فى «الحوادث» والأساطير، وفى الأمثال السائرة ، وفى الحكم المأثورة ، وفى النكات ، كوجودها فى الأحلام . ومن بين هذه الرموز المستعملة أشياء كثيرة تعنى بانتظام أو شبه انتظام الشيء ذاته ؛ وفوق هــذا ، وفى الغالب ، فان الفهم العــام والنشاط الجم انما يعتمد على عقلية هذه المخلوقات » (١) .

ولكل جيل دستوره الخاص بمعاملاته ، وعاداته ، وأفكاره وآدابه وقيمه ، ومثله ، الخ .. وهذه كلها تلقى قيودها على الفرد وعلى رغباته . واذن فكل جيل ، بنوع ما ، يمكن أن يقال ان له مرتبته اللاشعورية . والجماعات لا تنفك تغير البيئة على الدوام ، لأن الفرد يضطرها أن تختار وترتب لنفسها المقاييس التى لا يمكن عملها دائما له ليعيش لها .. والفرد اذ يحاط بسور من القمع الذى تسببه أو تفرضه الجماعة ، لا يسمح له بالتحدث فى هذا البحث الحيوى بالطريقة الصريحة التى يعالج بها أى موضوع آخر ذى أهمية لوجوده . ولا يخرج الأمر كله عن كونه من المحظورات ، ومن هنا ينشأ الاحساس بأنه لابد من وجود شيء قبيح خاص به . وهكذا ترقى المرتبة فى اللاشعور — مرتبة الكبت . وقــد تبدو كلها واضحة فى الظاهر . والفرد يدور حول واجبه اليومى ولا يظهر أى أعراض لطبيعته الجنسية . ولكن ، فى أعماق عقله توجــد شخصية تختلف تمام الاختلاف عن تلك التى تظهر سطحيا .

ولقد أوضحت تقصيات علماء الأمراض العقلية كل هــذا بمهارة فائقــة . ولوحظ مرة تلو مرة أن النساء الفضليات اللائى يعانين هيئة معينة من الانحراف العقلى يتفوهن بسباب عنيف وفحش شديد . فى حين أن النساء الخليعات ، من جهة أخرى ، اللائى يعانين نفس هيئة المرض

(١) Freud's Theories of the Neurosis, p. 105; Dr. Hitchman.

بالذات لا يمكنهن اظهار هـذا العرض بالصيغة التى تظهرها اخواتهن الأفضـل منهن . والصورة الواضـحة للكبت ونتيجته تؤثر فى بعض الأنواع .

ودراسة المبدأ الحيوى (١) تمدنا بالدليل الأول عن المادة . فالانسان القديم يعتقد أن له نفسا أو روحا تحرك حياته على هذه البسيطة. وتنتقل هذه الروح بعد الممات الى دائرة أو بيئة أخرى لتبقى موجودة ككيان مستقل . وما كان الجسد الا مجرد مسكن للنفس . وكان ينظر اليه كمخلوق ممتاز . ولم يكن هناك بالتأكيد أى فهم لتأثير الجسم فى العقل كما هو معروف فى هذا الزمن .

ويأتى الانسان بالتدريج ليكبر من شأنه كى يحيط بأشياء لا حيـاة لها . ويعتقد بأن لكل شىء روحا ، فالريح الصاخبة التى تثور فى الغابات فتحطم كل ما يصادفها فى طريقها لها روح ، والنسيم العليل الذى يسلم جسمه لنوم مريح فيه روح هو الآخر . ولكن الانسان فى الوقت نفسـه يعتقد أن هناك وراء الحياة جميعها تكمن قـوة غامضة — التكوين ، الجنس — فمـد رغبـاته الجنسية واحساساته الى أشـيائه المؤلهة . والانفعالات البشرية فى الطبيعة ، كيفما تكن ، كانت محجوبة فوق الآلهة. وبعد مدة من الزمن أصبح الجنس هو الصيغة الأصلية لعبادة الانسان وعقيدته . وكان هذا فى حال من الشعور الاجتماعى فى كثير أو قليل من الصفاء . وأصـبح الجنس مستقبحا بظهور الحياة المعقدة ، أو كمـا اصطلح على تسميتها الحضارة . والانسان المجرد بالنسبة الى الطبيعـة يبـدو أقل الأجنـاس بالنسـبة لانحطاط الفكر ، ولكنه أسماها فى الوظيفة .

والانسان اللاشعورى يظل مخلوقا طبيعيا . فهو يعبر عن رغبـاته سواء سمح له بذلك أم لم يسمح . والطريقـة التى يعبر بها عن ذلك

---

(١) Animism.

تتوقف على مقدار التحديدات ومدى الحدود التى تفرضها عليه البيئة. وهو يرى جاذبية سريعة لدافعه الجنسى فى أشكال وفى تراكيب أشياء كثيرة فى بيئته كما تعود أن يرى حين كان همجيا . وانه ليختبر صنفا من الارضاء الجنسى بتفرسه فيه وترك أفكاره تجول كما تريد وكيفما تشاء. وبعض عوامل البيئة كالقصص الفكهة والصور الفنية التى من نوع معين، خلقت بصراحة لهذا الاتجاه الذى يميل اليه الانسان . فهى انما تقدم المنفذ لبعض النماذج المكبوتة .

فالاعلان ، مثلا ، له جاذبية وله تأثير كبير فى المشاهد ، أساسها الروابط الجنسية . واعلانات الحائط الكبيرة ، على وجه الخصوص ، والرسوم التى تعلن عن المنتجات التجارية ، وعن الأفلام السينمائية ، بمظهرها ذى الرونق الزاهى لنساء نصف عاريات ، يرسم بجلاء ووضوح أن الانسان سينظر الى شىء يفتنه جنسيا ، أسرع وأطول مما ينظر الى أى شىء آخر ليست فيه هذه المزايا .

والانسان يود ، بوعى أو بغير وعى ، فى اطالة لذته الجنسية . والدافع الجنسى بفطرته سيتمسك بأى شىء ويساعده فى هذه الناحية . فهو راقد فى طبيعة الانسان ذاتها للسعى وراء اللذة ، والعمل على اجتناب الألم .

واطالة الحب عن طريق العنصر الروحى ، أشار اليها الفيلسوف كنط Kant بقوله (١) : « وعلى قدر سرعة الذهن فى النشاط فهو لا يتوانى عن بذل تأثيره أيضا فى المحيط الجنسى . وسرعان ما اكتشف الانسان أن منبه الجنس (٢) ، الذى اعتمد فى الحيوانات على مجرد دافع دورى غالبا ما يكون وقتيا ، كان فى حالته الخاصة مقتدرا على الاطالة، وفى الغالب ، على الزيادة والكثرة بواسطة قوة التخيل » .

---

(١) The Probable Beginning of Human History, Published in 1786.

(٢) Stimulus

ونجد أن الرغبة تتحقق فى شكل رمزى لا فى الأحـلام فحسب ، سواء احلام النوم أو أحلام اليقظة ، ولكن فى الشعر والموسيقى والفن والأدب ، الخ ..

والحياة فى طريقها السريع لتكـون أكبر تعقيدا . وسرعة الحيـاة الحديثة تجبر الانسان على تنظيم نشـاطه اليومى بالنسبة للزمن الذى تسمح به بيئته وظروفه . فمركبات الترام المزدحمة ، والحافلات (١) ، والمطاعم ، والملاهى ، والمتاجر ، والشوارع ، تشـهد كلها على ازدياد السرعة التى جلبتها الحضارة الحديثة التى جعلت ملايين الأنفس تسير قطعانا ضمن الحدود الضيقة بالمدينة . وهذه الحاجة التى تتطلبها السرعة المجنونة ترقى فى عقولنا هيولية غامضة . وبلاد اليونان لم تنجب مفكريها العظام الا لأنها منحت سكانها ومواطنيها وقتا للراحة (٢) . هذا الوقت الذى يعد من المستلزمات التى لا تقدر قيمتها لكل نفس فنانة .

وفى أثناء كل هذه السرعة وكل هذا التزاحم ، كيفما يكن ، تعمـل الجنسية صامتة على التأثير فى الانسان ، والضغط عليه ، واقناعه ، وحثه طوال حياته .

ولكن الانسـان لا يعير كل هذا أى التفات . فهو جد مشـغول بالعوامل الموضوعية فى بيئته . هذه العوامل التى هى ، بعد كل هذا ، أكثر وضوحا وأكثر أهمية فى نظره .

وفى بعض الأحيان تكشف الرغبة الجنسية عن نفسها مـع نسمات الصيف الرقيقة ، وفى أحيان أخرى ، مع عواصف الشـتاء الهوجاء . ولكننا فى كل الحالات تتعامل مع المادة نفسها ــ أى اللبيدو أو الجانب العقلى لتلك الغـريزة الجنسية التى ليست الا أداة تتجسم فيها ارادة الحياة ورغبتها (٣) .

---

(١) الحافلات : مركبات الاوتوبيس .
(٢) عطلة اسبوعية واوقات عمل منظمة .
(٣) كتاب « ما فوق مبدأ اللذة » لسيجموند فرويد ترجمة الاستاذ اسحق رمزى ، ص ٨٦ .

واللبيدو هو الذى أطلق عليه يونج أسم « الطاقة الحيوية الكلية» وتظهر هذه الطاقة فى صور مختلفة من النشاط : النمو ، والتناسل ، والحب ، واللعب ، وغير ذلك من مظاهر النشاط الانسانى (١) . واذا تتبعنا بطريقة واضحة السبيل الذى تسلكه الناحية العقلية ، (اللبيدو) أثناء تنظيم نفسها فى وظيفة فسيولوجية تكون مهمتها العمل على حفظ النوع (٢) .

وأعمال اللبيدو لا تخضع للتأثير مع مرور الزمن . هذا التأثير الذى قدر له أن يلعب دورا حاسما فى حياتنـا ، والذى أصبحنا نعـرفه الآن وندريه بوساطة استقصاءاتنا السيكولوجية .

* * *

ويقودنا هـذا الى كلمة عابرة فى مشكلة قديمة واجهها علم الروح الحديث بأساليب أكثر عمقا وترابطا من أساليب الماضى ، وهى مشكلة تعيين مدى حرية الاختيار فى الانسان التى قد وجهت « ماضيه » وتوجه أيضا «حاضره» ، فهى ترسم بالتالى مقدما خطوط قدره ومصيره التى لا نعلمها نحن ، ولكن يعلمها علام الغيوب . وذلك مع مراعاة أن ألفاظ الماضى والحاضر والمستقبل لا تحمل بذاتها أى معنى متميز فى ناموس الطبيعة الأزلى ، مهما كان معناها واضحا فى احساسنا النسبى بالزمان ، والمرتبط أيضا باحساسنا النسبى بالمكان .

أما ناموس الطبيعة العام فيحيا دواما فى احساس بالحاضر الأزلى أو ما هو فى حكم الحاضر بالنسبة لاحساسنا النسبى بالزمان . فاذا ما قيل ان خطوط « المستقبل » مرسومة فى كتاب الطبيعة الخالد ، واذا ثبت ذلك بمعادلات رياضية صحيحة ، فلا يعنى ذلك أكثر من اثبات رابطـة السببية ، أو ارتباط العلة بالمعلول بين الماضى والحاضر ، وبين الحـاضر والمستقبل عن طريق معادلات الرياضة ، بعد أن وصلت الفلسفة الى هذه

---

(١) « معالم التحليل النفسانى » ص ٢٩ .
(٢) نفس المصدر ص ٦٢ .

الحقيقة ، عن طريق المنطق ، والحكمة عن طريق الالهام ، وعرفها الانسان من قديم مرتبطة بمصير روحه الخالدة تحت وصف قانون السببية ، أو الفعل ورد الفعل .

ولا يعنى ذلك أيضا سوى اثبات أن الطبيعة تحيا دائما فى «حاضرها الخالد » الذى يطوى بذاته صفحات ماضيها ومستقبلها ، وكأنها فى كتاب مطبوع مقدما ، ومعد لأن يفهمه العقل تدريجيا كلمة فكلمة جيلا بعد جيل . فالطبيعة تحيا فى حاضرها الخالد هذا كما تحيا فى مكانها غير المحدود . وذلك كله يقتضى أيضا استبعاد فلسفة القدرية المطلقة ، التى ليس لها الآن من سند علمى ولا رياضى لاستبقاء الاعتقاد بالمصير المرسوم لمستقبلنا المرهون بأعمال بحاضرنا ونواياه والذى لا يعنى أكثر من أن مستقبلنا مصنوع بحاضرنا ، ومغروس بجذوره فيه كغرس النبات فى تربته التى يستمد منها أسباب النمو والازدهار ، أو أسباب الذبول والانهيار » (١) .

ولا يبدو مع ذلك أن ثمة تعارضا محتوما بين القدرية فى مفهومها الصحيح وحرية الاختيار ، فالانسان فى حقيقة الأمر مسير مخير فى وقت واحد ، وفى لحظة واحدة . فهو مخير بقدر ما يملكه من ارادة حرة ، وهو مسير بقدر ما هو محكوم بهذا القانون الذى لا يمكن أن يفلت منه ، وهو قانون السببية : أو ارتباط النتائج ارتباطا محتوما بمقدماتها، وبالتالى ارتباط الماضى بالحاضر والحاضر بالمستقبل .

فلا محل مطلقا للقول بالتعارض بين التسيير — فى معناه العلمى هذا — والتخيير ، الا اذا صح القول بالتعارض بين القطبين السالب والموجب ، مع أن أحدهما يكمل الآخر ، وكلا منهما لازم للآخر ، واجتماعهما معا لازم لأى نشاط كهربى ، كما أن اجتماع التخيير والتسيير معا لازم لأى نشاط ارادى فى هذا الوجود ، وأيا كان مصدر الارادة بين

---

(١) «مفصل الانسان روح لا جسد» جـ٣ ص٣٥٤/٣٥٥ للدكتور رءوف عبيد — الناشر دار الفكر العربى .

القوى العاملة فى هذا الكون ، وسواء أكانت تنتمى الى عالم الشهادة أم الى عالم الغيب . وسواء أكانت تنتمى الى مستوى الانسان فيه أم الى مستوى أسمى منه أم أدنى (١) .

ومن المفيد هنا أن تثبت ما لاحظه الأستاذ موريس ماجر من أن العقل الباطن أو غير الواعى ليس سوى عنصر واحد من عناصر مصائرنا ، فيه يتمركز قانون الكارما (أى ارتباط النتائج بالمقدمات فى حيوات الروح المتعاقبة) ، فهو يمثل خلاصة أعمالنا المتراكمة التى أضحت بمثابة اتجاهات تعد نفسها كيما تصبح نتائج وأحداثا .

ثم يضيف قائلا أن مصير الانسان لايتوقف تماما على عقله الباطن ، بل على الجزء الأسمى من وعيه ، هذا الجزء الذى سيصبح يوما على صلة بالله ، والذى يتمثل فى قدرته الفطرية على التمييز ، وعلى الحكم على الأمور ، وعلى توقعها ، وعلى اختيار سبيله (٢) .

وعن هذا الجزء الأسمى من وعى الانسان ، وعن ذلك العالم غير المنظور يقول وليم جيمس العالم النفسانى المعروف فى مؤلفه عن « صنوف التجربة الدينية »(٣) :

« ليست الذات الواعية الا جزءا من ذات أعظم . وان امتدادات الذات الواعية لتذهب الى ما هو خارج الاحساس والعقل بكثير فى اقليم يمكن تسميته بالغامض أو بما فوق الطبيعى . وطالما أن ميولنا تستمد أصولها من ذلك الاقليم — وهذه هى حالة الغالبية من بين هذه الميول — فان صلتنا بذلك الاقليم تكون ممتدة فيه الى ما هو أعمق مما تمتد اليه فى العالم المنظور ، وذلك لأن مطامعنا الأكثر سموا هى محور شخصيتنا.

---

(١) نفس المرجع الجزء الثالث ص ٤٦٧ .

(٢) كتاب : "Les Interentions Surnaturelles" (1939).

(٣) "Varieties of Religious Experience" (1902).

ولكن ذلك العالم غير المنظور ليس مجرد مثل أعلى فحسب ، كلا بل انه يحدث آثاره كذلك فى العالم المحسوس . فاننا باتصالنا بذلك العالم غير المنظور تنتهى ذواتنا بالتحول فنصبح أشخاصا آخرين ، ونصحح من سلوكنا عن طريق اعادة تقويم خصائصنا الأصلية من جديد . ومن ثم يحدث ذلك العالم غير المنظور تأثيره فى العالم الطبيعى ، فكيف نأبى أن نسمى ذلك العالم الآخر بالحقيقى وهو الذى يحدث أثره فى داخل حقيقة أخرى (هى العالم الطبيعى) ؟ .

ويؤكد وليم جيمس القول بأنه توجد فى الطبيعة الانسانية منطقة لها صلة وثيقة بالمنطقة الالهية أى بالعالم غير المنظور . هذه المنطقة هى الشعور الخفى أو ما وراء الشعور الخالد ، أو بروز النفس الاجتماعية بروزا أوضح من النفس المادية .

وهو يعتقد أيضا أن الله لم يخلق الكون من الأزل ، وانما الخلق وعمل الله فيه قائم فى مجال الزمن . والزمن صورة الامكان « وأهم فكرة متضمنة فى فكرته الشخصية عن الله هى أن الله رفيق للانسان ، صديق له ، معين له على الوصول الى كماله ، مساعد له فى التغلب على الشر الذى فى العالم . فهو ليس مصدر خوف لنا أو رهبة ، وانما هو مصدر حبنا لأنه رمز تفاؤلنا فى هذه الحياة » (١) .

* * *

(١) كتاب « وليم جيمس » للاستاذ محمود زيدان ص ١٧٩ .

أعجب ما فى ذواتنا

فى هذا العصر العجيب ، عصر الذرة والصواريخ ، عصر السرعة الفائقة والتقدم السريع فى غزو الأشياء المادية والقوى الطبيعية ، سمعنا أيضا عن كثير من الاكتشافات والفتوحات فى المجال العقلى .

لقد أخذنا عن معلمينا أن العقل البشرى منطقة للحكمة والقوة مذهلة للغاية ، لا تستعمل الا فى النادر القليل ، وهى مع ذلك يمكن أن يستغلها ويستخدمها أى شخص متوسط الذكاء .

وتعلمنا فضلا عن ذلك أن الفرد الذى يستطيع استخلاص هذه الحكمة وهذه القوة يحظى بالفوز والنجاح فى حياته أسرع ممن لا يستطيعون ذلك . وبالتالى يغدو الشخص الذى يريد أن يكونه ، ويحصل على ما يشتهى ، وينال كل ما يبتغى .

وهذا التعليم الذى تلقيناه اما أن يكون حقا وصدقا ، واما أن يكون زيفا وكذبا .. اما أن يكون علما بمعنى الكلمة ، واما أن يكون « تهويشا » وتضليلا ودجلا .

يقول البعض انه الحقيقة بعينها . ويقول البعض الآخر انه افك ، وخداع ، وتضليل . فاذا كان كذلك ، فبمجرد أن نخلى عقولنا من جميع شواغلنا يجدر بنا أن نمضى فى اصلاح حالنا لتصلح دنيانا .. أما اذا كان ما تلقيناه حقائق علمية ، فأفضل عمل يجب أن يقوم به أى انسان هو السعى والدأب على تعلم المزيد من الحكمة والقوة ، والأخذ بأحدث الوسائل والطرق لبناء حياة أسعد وأفضل .

فهل هو حق أم زيف ؟

هذا التساؤل يجب أن يقودنا الى الحقيقة ..

ان الانسان المتوسط قد يثور ولا يرضى أن يتناقش فى مثل هـذه القضية . فهو لا يمكن أن يصدق بأى حال أن بداخله هذا المخزن الملئ بالحكمة والقوة كالذى تتحدث عنه . وهو غالبا ما يتبرم ويتراجع عن بذل أى مجهود يقوده الى الاقتناع بأن شيئا من هذا القبيل موجود فى تركيبه العقلى . ويحسب أو يخيل اليه أن هذا المجهود وأمثاله يعتبر اهانة له وانتقاصا من ذكائه .

والأناسي الذين ليست لهم دراية بعـلم النفس سرعان ما يثورون ويتبرمون ثم يعودون فيذعنون لمعتقداتهم ، بعكس المشتغلين بعلم النفس فانهم يعرفون جيدا أن كثيرا مما يعتقده الناس ويؤمنون به — فيما يتعلق بهم وبغيرهم — انما هو كذب وبهتان . وانهم لراغبون ، متحمسـون لرغبتهم فى تغيير المعتقدات الزائفة بحقائق صريحة كلما استطاعوا الى ذلك سبيلا . لأنهم يدركون تماما أن الصدق سيجعلهم طلقاء أحرارا .. أحـرارا من الآراء التى تقض مضاجعهم ، وتعرقل سعيهم الى الحيـاة الرغدة التى يتوقون اليها .

وكقاعدة عامة ، نرى أن أولئك الذين ليسوا على شئ من علم النفس يفضلون التمسك بمعتقداتهم ولا يرضون عنها بديلا . حتى ولو كان هذا البديل حقا صراحا ، أكثر جمالا ، وأكثر اشراقا .. مبشرا بالخير الكثير والرزق الوفير .

والشخص الذى لم يساير تعاليم علم النفس الحديث يلاحظ أن عقله كما يجب أن يكون — جزء من ذاته خفى عجيب ، ليس له من عمـل الا التفكير ، وليس من شئ غيره — ويتصور أن الحكمة فى عقله لا تشمل الا الأشياء التى تعلمها منذ مولده ، والاستنتاجات التى توصل اليها عن طريق الاستقراء ، والاستدلال من الأشياء التى تعلمها .

أما العالم النفسى فانه يعرف أن الشخص الذى يرضى أن يكـون

عقله مجرد آلة عادية تافهة ، يخطىء خطأ جسيما ويفقد الكثير من مباهج الدنيا وفرص الحياة .

دع الشخص الذى يعتقد أن حصيلته من المعارف انما يجب أن تكون فقط كل ما تعلمه منذ نشأته ، يجيبك على هذا السؤال :

ما هو القانون الكيميائى لتحويل الطعام الى نخام ؟

والنخام هــو مادة غريبة تقوم بصنعها الغدة النخامية أو النخميــة الكائنة عند قاعدة المخ . وكمية هذه المادة وكيفيتها هى التى تحدد ما اذا كان الطفل سينمو ويغدو ضخما ، أو سينشأ ضئيلا ، وتحدد ما اذا كان الفرد حين ينمو ويكبر سينتمى الى حزب شجر الجميز أو الى حزب أغصان البان (١) .

ثم انى أرجو الاجابة على هذا السؤال : ما هى المعادلة الكيميائية لصنع النخام ؟

اذن فاعلم ان كنت لا تعلم ، أنها احدى وظائف جسمك التى لا يمكنك أن تملك ازاء بنائها عمل أى شىء . والتى تدور وتظل مستمرة فى دورانها كساعة مملوءة (٢) .

أقدم اليك سؤالا بسيطا آخر فلتحاول الاجابة عليه : اذا كانت درجة حرارة الهواء الذى يحيط بك فى غرفة ما ٧١ درجة فهرنهيت ، وكنت جالسا فى هدوء ، ومجردا من الثياب ، أى فى حالة عرى تام . وكان وزنك ٦٩ كيلو و٥٠٠ جرام ، فكم من السكر يجب أن يطلقها كبدك فى مجرى

(١) The Sex Hormones, fourth edition 1950, Ciba Handbook No. 4, p. 67, 68.
Human Physiology, by Kenneth Walker, p. 109, 110.

(٢) A Textbook of Practice Medicine, by S.L. Simpson. Oxford Medical Publications. Seventh edition, 1946, p. 500, 501.

دمك كل دقيقة لكى تقف درجة حرارة جسمك عند ٩٨٫٣ درجة ؟ (١)
هل من جواب ؟ .. ألا تستطيع الاجابة ؟ .. أقدم اليك مثالا آخر عن الساعة المملوءة التى لا تتوقف عن الدوران . أية ساعة ، ساعة حائط ، أو ساعة منبهة ! .. لنفرض أن درجة الحرارة خارج الغرفة التى تجلس فيها فى درجة التجمد ، ولنفرض أن أحدهم فتح عليك الأبواب والنوافذ فجأة . الا شك أن الأمر سيسوءك ، وستصاب بأذى بالغ جسيم ! .. هل تظن أن الساعة ستستمر فى تكتكتها ولن تتوقف دقاتها الخفيفة المتوالية فى حين تكون درجة حرارة جسمك قد نزلت الى قشعريرة الموت ؟ .. كلا ..

ان فى أقصى الخلف بأسفل مخك عقدة صغيرة من خلايا المخ يمر منها عصب الى كبدك (٢) . هذا العصب هو سلك (تليفون) حى . وعندما تنزل درجة حرارة دمك حوالى عشر درجة فان العقدة الصغيرة من خلايا المخ الموجودة فى الجزء أو الجانب السفلى من مؤخرة المخ ستحس بالهبوط . ومن ثم يعمل بعض الذكاء أو القوة المدركة فيك على الاتصال « تليفونيا » بكبدك ليضع مزيدا من الوقود فى النار — أى مزيدا من السكر فى دمك — بقدر معقول لا يتجاوز الحد المألوف . فان الزيادة الكثيرة قد تسلمك الى حمى ، أو تلقى بك فى بحر من العرق غزير . والكمية المطلوبة هنا هى التى تكفى لوقف حرارتك عند ٩٨٫٣ درجة . فاذا انقطع سلك التليفون الحى ، أو حدث به عطب ، فان الكبد يتوقف عن أداء وظيفته فيكون الموت المحقق .

ان الميكانيكى الفذ فى المعرفة بسر الآلات ، وكبير مهندسى الآلة العجيبة التى هى جسمك ، يعمل بين تضاعيف جزء من مخك لا تستطيع بدونه أن تتعلم أى شىء أو تقيم الحجة على أى شىء . ولن تستطيع بدونه كذلك ارسال أية رسالة الى عصب تليفوناته . لأن هذه التليفونات

---

(١) معدل درجة حرارة جسم الانسان العادية ٩٨٫٣ فهرنهيت اى ٣٧٫٥ مئوية .

(٢) A Textbook of Practice Medicine p. 442.

ليست على اتصال بهذا الجــزء من مخك .. انهــا بكل دقة عبارة عن « خطوط الخدمة » التى لا يمكن أن يستعملها الا السيد المهندس وحده دون غيره. وأنت كقوة عقلية موضوعية، لست الأستاذ المهندس. ولكنك مجرد ساكن أو مستأجر ، ساذج ، جاهل ، لست على شىء من المعرفة كثير الأخطاء ، تعتقد وتتأثر بمجموعة من الأشياء ليست على شىء من الحقيقة فى كثير من الأحيان ، فأنت بالتالى تعمل بجهل وبلا تبصر فى أغلب الأوقات . كما أنك تجهل الكثير من شئونك الخاصة .

وجاء السيد المهندس ليقوم بعملية البناء . ولقد قام فعلا باصلاح جسمك ، وترميمه ، وتجديده ، منذ أن كان ما يزال مجرد خلية صغيرة جدا تكونت من اختلاط خلية الذكر التناسلية بخلية الأنثى . ولسوف يظل على عمله هذا الى أن تجود النفس بالنفس الأخير ، ويهدأ القلب هدأته الأخيرة .

انه جاء ومعه رســوم البناء وتصميمه ، والشروط والمواصفات وصورة لجسمك . أما مواد البناء فقد استخلصها فى بضعة شهور قلائل من جسم أمك . وما انفك منذ مولدك يستخرج هذه المواد من غذائك

انه لم يبن جسمك بالأيدى أو بالآلات أو العدد . وانما بناه بقوة تفكيره الخالق ، الصافى ، تلك القوة التى تخلق وتبدع الصورة الذهنية على درجة من القوة والصفاء بحيث تجتذب اليها أنماطا وحالات ثابتة محققة من المادة تملأ بها الفراغ .

أما المواد التى فى الخلية ، والتى كانت بداية جسمك ، فكانت « تشكيلا نفسانيا » بفعل قوة تفكير السيد البناء ، أى انها صيغت بواسطة الفكر . وبعض المواد التى فى جســمك ما تزال فيهــا المرونة النفسانية. وفيها الأثر الفعال لتضميد الجراح . يبعث بها السيد المهندس الى المنطقة المجروحة أو المكلومة ، وبقوته الخارقة ، الخالقة ، يصوغها الى أعصاب ، وشرايين ، وأوردة ، وغضــاريف ، وعظم ، ولحم ، وجلد .

انت .. ماذا تكون ؟ :

والسيد المسيطر الذى فى طويتك هو أنت ذاتك . أو بالأحرى الجزء الآخر منك ، الذى كان على درجة من الذكاء عجيبة قبل ان تميز عيناك أى شىء وأنت ما تزال فى المهد صبيا . أو قبل أن تستعمل عقلك فى التجارب . أو تستدل به على أية خبرة من خبراتك .. انها نفسك الخالدة ، وانها هى المسكن أو مقر الذكاء الابداعى العام .

وهــذا العقل المسيطر يسمى دائما فى لغة علم النفس بالعقل « الدوشعورى » أو « التحتشعورى » . ويسمى فى بعض الأحيان بالعقل « اللاشعورى » ، ويطلق عليه أحيانا عقل الشعور الأعلى ، أو عقل الشعور الأرقى . وان هى الا أسماء لمسمى واحد . «تعددت الأسماء والشىء واحد » .

ويقصد بهذا كله ، المنطقة من العقل الواقعة عند مؤخرة عقل التمييز الادراك والاستنتاج والاستدلال .

بيد أن بعض علماء النفس يفضلون تقسيم العقل الى ثلاثة أطوار بدلا من أثنين هى : العقل الموضوعى ، أو العقل الواعى أو المدرك ؛ والعقل الذاتى ، أو العقل الحالم ؛ والعقل الباطن ، وينقسم الى عنصرين: العقل التحتشعورى والعقل الأسمى . وهذا الثانى هو الجانب المبدع ، الخلاق ، الذى يعتبر الآن مصدر كل حكمة ، والذى يفسر أعمال التضحية والفداء والالهام وانكار الذات والبطولة الفريدة وغير ذلك من أعمال الحكمة فى الانسان .

أما العقل « التحتشعورى » فهو مستودع تجارب الماضى ، وهو الذى يحافظ على النوع فى الانسان وترتبط به انفعالات الغرائز بوجه عام بما فى ذلك الانفعالات الجنسية والمتصلة بغريزة البحث عن الطعام وكل ما يلزم لضمان بقاء النوع .

ويبدو أن هذا التقسيم ضروري ، لأن هناك كثيرا من أطوار العقل التي لاتشبه من قريب أو بعيد أيا من العقلين ، الموضوعي أو اللاشعوري فانضم أحدهما الى الآخر وأطلق عليهما « العقل الذاتي » . ولقد شاع الآن بين الكتاب والمحاضرين تقسيم العقل الى ثلاثة أطوار . ولكننا هنا يهمنا أن نشير فقط الى العقل اللاشعوري أو العقل المبدع . أما العقل الذاتي فسنتكلم عنه في الفصل التالي .

فالمشاهد أن العقل اللاشعوري يبدو عالميا في مجاله على الأقل ، لأنه يعمل على تنفيذ نفس الوظائف التي من شأنها القيام بعمليات البناء والادارة في جميع الأجسام البشرية ، بصرف النظر عن السلالة ، أو الاقامة ، أو المستويات الثقافية . ويبدو أيضا أنه يكون نوعا من أنواع الاذاعات المنتشرة في أنحاء العالم ، والتي تستنغمها وتنسجم معها جميع الأجسام البشرية .

ان بعض الناس ممن يعتبر موضوع علم النفس الحديث شيئا جديدا بالنسبة له ، يرى أنه من العسير أن يفكر أن عقلا واحدا فردا يمكنه أن يملأ الفراغ الذي يحيط بالدنيا ، وأن طورا معينا للمادة غير ذي أهمية عملية هنا . أما الشيء الهام هنا فهو أن مثل هذا العقل يؤدي وظيفته فعلا في كل جسم بشري .

هذا هو الغرض الأساسي والقضية المسلم بها في علم النفس الحديث: الاستقرار في كل مخلوق بشري لحالة من حالات العقل ، أحكم وأقدر وأقوى وأكثر سطوة من العقل الموضوعي الصغير ، العطوف ، ذي الرحمة الذي لا يعرف شيئا سوى ما يفهم أو يدرك خطأ عن طريق حواس الجسم الطبيعية الخمس .

والافتراض الثاني هو أن المخلوق البشري يمكنه أن يتصل ويمتزج بالعقل المستقر العجيب . ويستميله اليه للاسترشاد به في التفكير وفي عمل الأشياء التي تجلب له السعادة والكثير من أطايب الحياة .

ثم ان العقل الباطن لا يتطفل أبدا . ولا يتدخل فيما لا يعنيه من شئون الفرد الخاصة ما لم يطلب اليه ذلك . انه سيجعله يصدق الكذب والنفاق طوال حياته . وسيؤثر فى حياته دائما بالضرر والخسارة دون أن يشير عليه أو يلمح له من قريب أو بعيد أنه كذب ونفاق . وسيتركه يفعل ويفكر فى أشياء تجعله سقيما عليلا . وسيستعمل جميع مصادر الجسم الى السبب الحقيقى ، لا الى العـــلاج . انه سيقيم بالحق فى نفس يفعل ويفكر فى أشياء تجعله سقيما عليلا . وسيستعمل جميع مصادر الجسم السقيم لاصلاح التلف وترميم العوار . ولكنه لن يوحى ولن يشير الى السبب الحقيقى ، ولا الى العلاج .. انه سيقيم بالحق فى نفس الجسم بعقل موضوعى يعمل ويقول ويفكر دائما وباستمرار فى الأشياء التى تجلب الفشل، والعجز، والخيبة، والحزن، والفاقة بدون أى ايحاء خاص بما كان ينبغى أن يعمل ويفكر فيه . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذا ، فهو أقرب الينا من حبل الوريد ، يجيب دعوتنا اذا دعوناه (١) .

الايحاء الذاتى :

وهذا يقودنا الى لغز الدعاء ، أو الطلب ، أو الالتماس العملى .. فكيف يمكننا أن ندعو العقل الباطن ، ونطلب منه أن يســتمع الينـــا ويطيعنا فى تلبية طلبنا ؟

ان الطلب ينبغى أن يكون بالطريقة الصحيحة المثلى، والا فسيزول عنا ولا يكترث بنا . والحديث فقط عن الطلب أو التفكير فيه سيكون باطلا لا نفع فيــه . فاذا رغب الشخص فى التحدث الى العقل الباطن وجب عليه أن يتحدث اليه بلغته التى يفهمها . أما لغة البشر فهى غير ذات نفع . هذه هى النقطة التى طبق علم النفس الحديث نفسه عليها بالنشاط الجم والمثابرة . انه وجد أولا ، المبدأ العلمى الأساسى الكامن أو الواقع تحت ما يسمى بـ « الايحاء الذاتى » الذى يعنى احداث الايحاء بالتلقين أو بالمحاكاة . ويعنى عمليا الايحاء الموجه من الشخص الى عقله الباطن

---

(١) أفردنا فصلا خاصا عن « العقل الباطن » فى كتابنا « لكى تكون سعيدا » بسلسلة « اقرأ » رقم ٢١٧ .

لا الى عقله الموضوعى فحسب ، لأن الايحاء الذى يوجهه الفرد الى عقله الموضوعى لا فائدة منه ولا جدوى (١) .

واليك شرحا فنيا للقانون العلمى الذى يتعرض للايحـــاء الذاتى ويدعمه وهو : « ان الفكرة المعزولة تميل الى تحقيق نفسها واثبـــات وجودها فى جسم من يعزلها ، وتنزع الى التدخل فى شئونه » . وهنا يبرز هذا السؤال : « ما هى الفكرة المعزولة ؟ » .

هى فكرة منفردة تقف فى العقل وتعمل على طرد أية أفكار أخرى ، وقد يكون من الصعب التعبير عن مثل هذه الأفكار بالكلمات .. ففكرة « أنا هنا » ليست بالفكرة المعزولة . لأن عنصر المكان موجود فيها . شأنه تماما شأن أى عنصر فى الوجود. أما « أنا » أو « ها أنذا » فقريبة نوعا الى فكرة معزولة يمكن التعبير عنها بالكلمات والألفاظ .

الفكرات العازلة :

اذا أراد الشخص أن يعزل تفكير الوجود المطلق الذى يتضمن كلمة « أنا » فستكون الفـــائدة التى يجنيها هى فقط : الاحساس بالطمأنينة ، والشعور بالهدوء والسكينة، وليس هذا هو الهدف الوحيد الذى يتجه اليه علم النفس الحديث ، وانما هو : ذوق ، وتمييز ، وقوة ادراك، وضرب من ضروب العلم العملى، وغرض بعينه يعاون الناس على زيادة دخلهم ، وتحسين مراكز فى الحياة ، ورفع مستوى معيشتهم ، فيصبحون أكثر ايجابية ، وأكثر جاذبية ، ويعملون على الحصول على مزيد من الصـــداقات ، والحب ، والسعادة . وحين يحصلون على هذه النتائج ، سيصلون حتما الى مراكز أعلى تؤهلهم لخدمة الآخرين فينالون ثواب الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة . « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله » (٢) .

---

(١) اقرأ كتـــاب « نحو حيـــاة مشرقة » للمؤلف ص ٣٤ — ٣٧ عن دار المعارف .

(٢) سورة النور آية ٣٨ .

وفى غضون سنى التجارب والاختبارات ، وعمل التطبيقات العلمية على كثير من آلاف الحيوات البشرية ، تكون المعادلات والقواعد العلمية البسيطة قد عملت على استخلاص الأفكار العازلة من الأشياء والحالات التى طالما تهفو اليها النفس ، ويشتهيها القلب . وتنتشر اللغة التى يمكن الانسان أن يتخاطب بها مع العقل الباطن ، فيغوص فى أعماقه ويسبر أغواره ، ويكشف عما فيه من مساعدات فعالة تجعل حياة الشخص كما يود أن تكون .

الاستمتاع بالحياة :

ان كاتب هذه السطور كان له شرف الاسهام بنصيب متواضع صغير فى القيام بهذه الاختبارات والتجارب ، ونشر تلك القواعد ، ولذا فقد جاء ليعرف ، من خلال تجربة كثير من عظماء الرجال والنساء فى جميع أقطار العالم ، أن الاستعمال الصحيح لهذه القواعد البسيطة يساعد على الوصول الى مخزن الحكمة المقيم ، ليمده بالوحى والالهام ، ويرشده الى الهداية والتوجيه الضروريين لجلب السعادة والحصول على النتائج السعيدة التى سبق أن أشرنا اليها .. وأكثر من ذلك الأشياء التى تضفى على الحياة متعة ومسرة .

وغرضنا الحالى هنا ليس هو أن نعالج الطرق والقواعد . وانما هو مناقشة السؤال عما اذا كان العقل اللاشعورى يمتلك حكمة أكثر من العقل الموضوعى أم لا ؟ ..

ونحن نرى أنه فى حال بناء جسم والتأثير فيه ، يمتلك قدرا من الحكمة أعظم وأكثر مما يمتلكه العقل الموضوعى ؛ وتفكير لحظة وجيزة يجعلنا ندرك تماما أن بناء جسم والهيمنة عليه يتطلب خبرة ومعرفة فى الكيمياء ، وعلم الأحياء ، وعلم الأشعة ، والاتصال السلكى واللاسلكى ، وعدد من علوم أخرى بعيدة كل البعد عن أى شىء يمت بصلة الى العقل الموضوعى .

القوة المقيمة :

ان الشخص الذى يجتذب الحكمة المقيمة أو يستميلها اليه ليستعين بها بالهداية والارشاد فى جميع الأعمال والحرف ، وفى حل مشاكله ، وفى اشباع رغباته ، لم يخالف بذلك قانون التكافؤ . ولم ينتهك حرمة أى قانون من قوانين علم الاجتماع أو علم الاقتصاد . وانما هو بذلك يضبط ترديد صـوته العقـلى بحيث تأتلف أنغامه مـع ألطف وأرق ايقاعات الحياة وألحانها .. وجعلها تؤدى اللحن العذب خير أداء .. ويقيم فى ذات نفسه اتجاها أفضل مختلفا لعقله ، بايمان أقوى ، وأمل أكبر ، وشجاعة أكثر ، وبوحى والهام .. ويجد أنه تغاضى عن الفـرص التى كانت لديه فيما مضى ، ويقوم بأعمال جديدة أفضل من غيرها ، وباتصالات اجتماعية أحسن من سابقتها ، لأن اتجاهه العقلى الجديد يجتذب اليه طائفة من الناس أرقى وأسمى .. وينساق طبيعيا وبكل سهولة الى عمل الأشـياء التى تدفعه قدما الى الأمام . وتثبت أقدامه فى الحياة الكريمة النبيلة .. ويغدو ــ باختصار ــ أكثر أهمية فى عالمه ، ويحصل على أسس قيمـه ومثله الكبيرة النامية ..

وغالبا ما تأتى هـذه التغييرات بسرعة عجيبة . ولكنها ، فى واقـع الأمر ، تدخل بطريقة منظمة عملية ، وبدقة متناهية ، مطابقـة للقوانين الطبيعية والاقتصادية ، فيها الحق والعـدل لكل من كان له فى الأمر شـأن .

كن قائد نفسك :

هل المخلوق البشرى فى الدنيا كمركب شراعى تتقاذفه العواصف ، وتلعب به الأنواء ، فى بحر الحياة الخضم ، تحيط به أسرار غامضة مبهمة لا يفهم منها شيئا ، ولا يدرى عنها أى شىء . تلطمه قوى مجهولة لا يعلم كنهها ، وتسوقه الى حيث لا يعلم ؟ ..

أم انه قائد نفسه .. على كثير من العلم ، والمعرفة ، وعلى بينة بقيادة أموره ، وادارة دفته الى مرفأ أحلامه ؟ ..

هناك من يقولون انه الأول ..

أما علم النفس الحديث فيقول انه الثاني ..

انني حاولت في هذا الفصل ، وسأحاول فيما يلي من فصول أن أجلو بعض ظلال الشك ، وأبدد ضباب الحيرة التي تكتنف موضوع علم النفس في عقول كثير من الناس .

واني لأرجو أن أشذب بعض كلمات من سقط المتاع لا معنى لها ، وأقدم الموضوع برمته على أسس سليمة بسيطة .

العقل الذاتى

المقصد الرئيسى من هذا الفصل هو تزويد الباحث عن الحقيقة بلمحة خاطفة عن تلك المنطقة من العقل التى اصطلح علم النفس الحديث على تسميتها « العقل الذاتى » ، فالشخص لن يكون سيد نفسه أو مسيطرا على مصيره ما لم تكن له على الأقل « دراية ناطقة » بجميع أطوار عقليته .

والعقل الذاتى يختلف تماما الاختلاف عن العقل الموضوعى، العقل المدرك ، عقل الشعور الكامل اليقظة. فهو من الهيولة والتعقيد والمراوغة على درجة لا يستطيع معها بحث من هذا النوع الا أن يشير الى بعض صفاته الظاهرة فحسب .

العقل الذاتى هو ذلك الطور من أطوار العقلية الذى يمر به الفرد حين يكون على أية حال من حالاته ، ما عدا حال اليقظة الكاملة . وهو شديد الالتصاق بالشعور اليقظ الكامل الى حد أن أقل ميل الى شرود الفكر أو « حلم اليقظة » يجعل الفرد على اتصال مع أحد أطواره، فمثلا ظاهرة « التلباثى » تأتى خلال أعلى طور للعقل الذاتى الذى يحدث به غالبا تماس بطريقة بسيطة جدا عندما يظل هادئا لمدة دقيقة ، فقد يتوقف الحديث بين قوم مجتمعين فى حجرة لمدة دقيقة أو بضع ثوان ، ثم يقطع السكون شخصان أو أكثر بالحديث معا عن شىء واحد بعينه . وقد يكون الموضوع بعيدا كل البعد عن أى شىء ذكر قبل فترة الصمت القصيرة .

وهناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل تحدث حين يكون ثمة حديث بين زوج وزوجته ، وكل منهما بعيد عن الآخر ، ولا سيما اذا كانا على وفاق تام ، وكان يربط بينهما حب عميق.(١) .

---

(١) راجع كتاب « السيكولوجيا والروح » للاستاذ احمد فهمى أبو الخير ٣١ — ٣٨ .

والتلباثى أو التخاطر هو توصيل التأثيرات من أى نوع كانت ، من عقل الى عقــل آخر عن بعد بغير الوسائل المــادية المتعارفة ، أى بدون استعانة بمسالك الحس المعروفة (١) . ومخترع هــذا الاسم هو العالم « مايرز » (١٨٤٣ — ١٩٠١) .

موجات الفكر :

ولأننا لا نعرف بعد الشيء الكثير عن التلباثى ، يتحتم علينا أن نكون حريصين فى الخوض فى أى جدال علمى فى هذا الموضوع .. ولكن من الأشــياء القليلة التى نعرفها أن أحسن ما ظهر من الكشوف فى هــذا الموضــوع هو ما يحدث دائما بين رجــل وامرأة يكن كل منهما الود لصاحبه . ونحن لا نعرف أية قوة تكمن وراء التلباثى ، فقد ادعى بعض الناس أن العقل محطة لاسلكية ترسل « موجات الفكر » الى عقل آخر منسجم معها ، ولكن اذا كان هذا هو الحل فموجات الفكر اذن تخالف القانون الطبيعى الذى يحكم جميع القوى الاشعاعية الأخر . وجميــع القوى الاشعاعية الأخر تنمو ضعيفة فى اجتياز المسافة ، مع أنه لا يبدو أن المسألة تؤثر فى التلباثى ، بل يبــدو أنها تؤدى وظيفتها من خــلال وحدانية العقل العجيبة ، اللامحدودة ، التى لها الدراية الحساسة بالأشياء التى تؤثر فى أى جزء من أجزائها ، وهى نوع من العقل السلالى يقطع الأرض كجو عقلى ، ويربط المخلوقات الآدمية برباط وثيق من الصــلة الأسرية الذهنية .

مسألة متناهية فى القدم :

حقا ان هذه الوجدانية البينة للاطوار المؤكدة فى الشعور البشرى هى الشيء الوحيد الذى يعوق أكثر من غــيره جهودنا لحل المســألة المتناهية فى القدم ، بخصوص ما لو كان هناك استمرار لحياة الفرد بعد الموت ، لأن لدينا حججا ثابتة ، وشواهد عظيمة ، بأن حياة الفرد تظل

(١) عن كتاب « الاحلام والرؤى » للمؤلف ص ٢١ — وللمزيد من المعرفة راجع دائرة المعارف البريطانية ، مادة Telepathy

باقية بعد الموت . ولكن هذه الشواهد لا تحتاج الى برهان لو كانت كل العقول البشرية موصولا بعضها ببعض . فلو أن أرملة دفعها اهتمامها بمخاطبة الأرواح الى أن تذهب الى صديق وسيط على جانب كبير من الأمانة والثقة ، فقد يخبرها عن بعض اختبارات سرية اتفقت عليها مع زوجها فى حياته . وقد يخبرها أيضا عن بعض أسرار قد تجهلها تماما ويكون زوجها أخبر بها شخصا ثالثا . ويذكر لها الوسيط اسمه وعنوانه شارحا لها بوضوح ذلك السر الذى يلم به الشخص الثالث . وحين تلاقى هذا الشخص الثالث وتقابله يتضح صدق كل ما قاله الوسيط ، وبذلك تظهر التجربة بصفة قاطعة وقد برهنت على أن الأرملة على اتصال بروح زوجها الميت . وكثيرا ما تطالعنا الصحف بأشياء تمت بصلة الى النظام الطبيعى لهذه الاختبارات التى أشرنا اليها . ولكن مثل هذه التجارب شائعة وعادية فى الظواهر الوساطية الصادقة (١) . والسؤال هو : « ما الذى تبرهن عليه هذه التجارب ؟ » .

ان العقل الذاتى لدى الوسيط — اذا لم يكن مرتبطا بعقول كل الأحياء من الناس ممن يعرفون شيئا ، أى شىء عن الاختبار — انما يبرهن على أن ذاتية الفرد تظل مستمرة وباقية الى ما بعد الموت . وان الشخص المحبوب الذى مر خلال تجربة الموت الفيزيقى يمكنه ان يتصل بصورة ما وبقدر محدود بأولئك الذين لا يزالون بأجسامهم الفيزيقية . ولا يمكن أن ينكر هذا أى انسان بحث ومحص بأمانة وبحرية صحة الظواهر الوساطية (٢) .

وليس فى نيتى هنا أن أتطرق الى أية مناقشة تفصيلية عن الوسطاء أو عن الحياة بعد الموت . وكل ما تصدينا له عن هذه الأمور لا أقصد به

---

(١) راجع كتاب « السيكولوجيا والروح » ص ١٩ — ٣٠ .

(٢) للقارىء اذا شاء الاستزادة فى هذا الموضوع أن يرجع الى مفصل « الانسان روح لا جسد » للدكتور رءوف عبيد الطبعة الرابعة ١٩٧٦ ، وهو موسوعة من ثلاثة اجزاء ، تشرح هذه الظواهر وتحللها علميا مع ما يتصل بها من فلسفة — الناشر : دار الفكر العربى .

الا مجرد اثارة الاهتمام بالعقل الذاتى عن طريق استدعاء الانتباه وجذبه الى امكانياته البعيدة .

وسأعالج هنا بضع حالات للعقل الذاتى أكثر وضوحا وأقل تعقيدا .

مخزن الحكمة :

من أجل هذا البحث حددنا العقل الذاتى بأنه ذلك المظهر من مظاهر العقل الذى يكمن بين الشعور الكامل اليقظة ، والعقل اللاشعورى الحقيقى الذى يقوم ببناء الجسم والتأثير فيه وادارته واصلاحه . وربما يقوده الى الحكمة التى يحتاج اليها الفرد ، ويتمناها لكى يجعل حياته كما يود أن تكون .

ومن الحقائق الملموسة التى يجدر بنا أن نعرفها ونتفهمها هى أن فى العقل الذاتى مخزنا كبيرا من هذا الضرب من الحكمة . والشخص الذى يشرع فورا باخلاص وأمانة فى معرفة نفسه واستعمال كل وسائله العقلية ، وموارده الذهنية ، لا يلبث أن يفيد فائدة كبيرة من هذا المخزن ، مخزن الحكمة الذاتية ، ولكنها ليست معصومة ولا منزهة عن الخطأ كحكمة العقل الشعورى الحقيقى .

ان بعض علماء النفس من المدرسة القديمة لم يقتنعوا بتاتا بهذا النحت الصادر عن العقل الذاتى من المنطقة التى بين الشعور الكامل اليقظة ، والأغوار العجيبة الغامضة من العقل اللاشعورى .

ولقد تعلموا أن يفكروا ويتكلموا عن : « العقل الشعورى ، والعقل اللاشعورى » فحسب . أما العجز والاخفاق فى التسليم بأن الطور الذاتى من أطوار العقل كمجرد شىء يختلف تماما عن كل من العقل الموضوعى والعقل اللاشعورى ، فانه يؤدى حتما الى البلبلة والارتباك .

والطور من العقل الذى يدرك ويميز وينعم بجمال الطبيعة ،

والمناظر الخلوية ، ويتمتع بمحاسنها ، أو الذى يقوم برسم الجسور وتصميمها ، وتشييد السفن ، هو وجه واضح من أوجه العقل ..

والطور من العقل الذى يبنى كتلة من الخلايا الجنينية بسرعة زائدة فائقة فى جسم بشرى ، هو وجه واضح آخر من أوجه العقل .

والطور من العقل الذى يبتهج ويحلو له أن يستخف بالمادة الوهمية التى تصنع منها الأحلام ، هو شيء يختلف تماما عن الوجهين الآخرين . فالأحلام جزء من العمل أو الوظيفة التى يقوم العقل الذاتى بأدائها .

مستودع الذاكرة :

هناك فى أحد هذه الأطوار الكثيرة من أطوار العقل الذاتى مخزن الذاكرة . ونحن لا نحمل ولا يمكننا أن نحمل فى كل الأوقات فى عقولنا الموضوعية ذكريات ما مر بنا من حوادث الحياة وتجاربها ، فحوادث الحياة وتجاربها إنما تمر من خلال العقل الموضوعى فى مجرى دائم ، فى الغالب ، من الادراك والمعرفة، ويتدفق هذا المجرى فى مستودع الذاكرة بالعقل الذاتى ، دون أن يضيع أو يبخر من المجرى شيء البتة .

وفى مستودع الذاكرة سجلات كاملة ودقيقة عن الأشـــياء التى صادفتنا فى حياتنا ، أو التى أدركناها وخبرناها ، أو التى درســناها وتعلمناها ، وفيه أيضا الحلول الكاملة للمسائل الرياضية التى حللناها أيام الدراسة ، وثبت بالحرف الواحد لجميع المحاضرات والمساجلات التى استمعنا اليها او تناقشنا فيها . هذه الأشياء كلها ، وكثير جدا غيرها مخزونة فى قسم الذاكرة بالعقل الذاتى . ويمكن أن ترتد أحدها أو كلها — تحت تأثير منبهات ملائمة — الى الشعور الموضوعى .

ولا يفوتنا هنا أن نضع أمام القارىء طريقة عملية سهلة فيها فائدة كبيرة يمكنه أن يمارسها اذا شاء :

استحضر قلما ومجموعة من ورق الكتابة، ثم اختل بنفسك فى مكان

هادىء . أذكر حادثا وقع لك منذ بضع سنين ، واسأل نفسك : « ما الذى اذكره من الحادث بعد ذلك ؟ » . أكتب الجواب مهما يكن وكيفما يمكن ، ثم اسأل نفسك مرة أخرى : « ماذا أذكر بعد ذلك ؟ » . ومرة آخرى أكتب الجواب .. استمر هكذا الى أن يدركك الملل والتعب ، ثم احتفظ بالسجل المدون لجلسة تالية . ان المرء اذا اعتاد عمل هذه الطريقة السهلة فانه سيخرج منها بنتيجتين باهرتين :

الأولى : هى أنه سينظم مخزن ذاكرته وينسقه ، فتتحسن بذلك ذاكرته ، وترقى الى درجة كبيرة لا تخطر له على بال .

والثانية : هى أنه سيكشف فى نفسه موسوعة من معارف نافعة ، وعلوم ذات قيمة تزيده علما وتثقيفا ، وتنفى عقله وتشذبه ..

البديهة :

سبق أن أشرنا من قبل الى الحقيقة التى تؤكد أن العقل الذاتى هو نفسه العقل السلالى الذى تختزن به الخبرة المتبلورة والحكمة ، لجميع المخلوقات البشرية منذ بدء الخليقة ، فى كل وقت ، وفى كل زمان ، لأن العقل السلالى خالد خلود الزمن ، باق بقاء الأزل .. ومن هذا الطور العميق من العقل الذاتى ، حيث نستمد الشىء الذى ندعوه «بديهة»(١) نعرف الكثيرمن الأشياء بدون تعلم . اننا نسميها فى الحيوان «غريزة»(٢) ولكنها فى الوقت نفسه كالبديهة .

والطور الموضوعى فى العقل البشرى أكمل وأرقى منه فى عقل الحيوان ، والمخلوق البشرى قبل أن يبلغ سن المراهقة يكون عقله الذاتى خامدا

---

(١) البديهة : وردت فى قاموس WARREN بانها حكم بدون تفكير سابق معروف من الشخص .

(٢) الغريزة : ميل فطرى يحمل الحيوان على عمل أو اعمال خاصة عند ظهور مؤثر خاص .

ومخفوقا بسبب الوظيفة العادية والعمل المألوف الذى تقوم به «الأنا»(١) فى الحيز الموضوعى . ومن هنـا كانت المعرفة البديهية عند البشر غـير واضحة ولا موجزة كالمعرفة الغريزية عند الحيوان . فالطير مثلا يعرف بالغريزة كيف يبنى عشه ، أما المخلوق البشرى فهو يتعلم كيف يبنى بيته والحيوانات تخاف بغريزتها من الأفاعى ، أما المخـلوقات البشرية فهى تتعلم أنها خطيرة فتخشاها ، وللسبب نفسه نجد أن العقل الذاتى يقوم بتأدية وظيفته بين الشعوب الهمجية وشبه الحضرية أكثر وأتم مما يؤديها بين الشعوب المتحضرة والأمم المتمدينة .

نتائج عملية !

ولا يسعنى قبل أن أختم هذا الفصل الا أن أحث القارىء على البدء من الآن باستعمال طريقة الورق والقلم التى أشرت اليها آنفا . فانه اذا داوم عليهـا وأصبحت لديه عادة ، فهى فضلا عن أنها ستكشف له عن منافع جمة ، ومزايا كثيرة ، يكتسبها لنفسه بعد فقدانها من ذاكرته ، ستهديه أيضا وترشـده الى قدر لا يستهان به من الادراك والمعرفـة البديهية لحكمة السنين الغابرة الكامنة فى العقل السـلالى . وستقود النتيجة العلمية للطالب وتدفعه فى طريقه قدما الى حياة أكثر وفرة ، وأكثر سعادة ، وتألقا .

(١) الانا : الفرد من حيث هو شاعر بهويته الثابتة المتصـلة وبصلته بالبيئة الخارجية .

عقلك .. ماذا يكون ؟

اننا اليوم جادون أكثر من أى وقت مضى ، فى بناء عالم جديد . . ولا يمكن أن يتأتى لنا هذا ، باديء ذى بدء ، الا ببناء أناس جدد .. وهذا يتطلب الشروع فورا فى ابتكار عمليات تفكير جديدة . ولقدتعلمنا فيما مضى أن التفكير شيء مجرد .. ولكننا اليوم قد بدأنا نفسر التفكير ونعرفه بأنه شيء حقيقى .. فمع أن التفكير أمر معنـوى الا انه ذو أثر مادي . لأن كل ظواهر الحياة محكومة بالعقل بصورة أو بأخرى . وهذه هى النتيجة التى خلص اليها علماء المادة فى تحليلهم للمـادة الصلبة ، وكذلك علماء النفس فى تحليلهم لكل نوازع الانسان .

والتفكير قوة حقيقية فعالة ، باعثة على النشاط والهمة ، وهو أعظم وأحذق صورة للطاقة ، بل هو طاقة الحياة ذاتها .. الطاقة فى أصفىوأنقى صورها . وأما « الدينامو » أو الجهاز العظيم لهذه الطاقة الجبارة فهـو المخ البشرى .

هـذا هو الكشف العظيم الذى اهتـدى اليه الانسان من قديم . ويمكن القول بأنه أعظم كشف على الاطلاق فى جميع الأزمان .. فالناس انما يتمثلون الشكل أو الصورة ، ويتصورون الشيء بهيئتـه المكتملة بعقولهم . وتفكيرهم المركز ، مع جهدهم وسعيهم ، هو الذى يأتى بهذه الأشكال والصور ، ويحولها الى مظاهر مادية على السطح الفيزيقى .

الانسان منذ زمن :

واذا وجهنا عنايتنا الى موضوع ما فى أى وقت من الأوقات فهـو لا بد أن يحـل نفسه ويحللها الى نتائج تبعث على الدهشة والغرابة . بل قد تكون أقرب الى الخيـال ؛ فالجن ، والحوريات ، وعرائس البحر ، والأطياف ، والملائكة ، والأرواح الخيرة والشريرة ، والعفاريت ، والمردة والشياطين ، والغيلان ، وفئة عظيمة أخرى منتشرة فى الوجود العلوى الذى فوق الطبيعة البشرية ، ومساقط أخرى لوهم الانسان الخـرافى

نشأت عن العقل المضطرب عند الانسان ذاته فى محاولاته الخرقاءلتفسير بعض أو كل الظواهر الطبيعية التى تخرج عن دائرة اختصاص خبرته الدنيوية ، اليومية .

أما البحث العلمى والاستقصاء الدقيق لموضوع العقل فله أصل حديث العهد جدا . فأنت لا يجب أن تتغاضى عن الحقيقة التى تذهب الى أن الانسان كمفكر فردى لم يتقدم كثيرا حتى اليوم . فالانسان كمخلوق وكجنس ، وكنوع أرقى من الحيوان ، كان يعيش على الأرض منذ عهد مغرق فى القدم . ولكن ما هو الحيوان ؟

يقول العلماء المتخصصون ان دهورا طويلة ، وعصورا مديدة ، مرت على الانسان حتى أخذ يتعلم كيف يقف على قدميه بعد أن عاش قرونا وقرونا أقرب شبها الى القرد بين أغصان الأشجار . وفى خلال هذه العصور والأزمان كانت الألوف المؤلفة من هذا النوع منتشرة هنا وهنالك قبل أن تقوم الحيوانات الأقوى بغاراتها وغزواتها . ثم تأتى العناصر القائمة ، الثائرة — كالمطر والثلج والريح والنار — فتجده عاريا وغير ذى حصن أو مأوى فتكتسحه وتجرفه فى تيارها الجارف وهياجها الصاخب ، الغاضب .

وهكذا تمضى القصة فى سيرها ، وتدور عجلة التاريخ ، الى أن تبدأ أخيرا ، لتوقد فيه ومضة كامنة من الوعى والادراك ، وتشعل بصيصا من الحذق والذكاء ، وشرارة من المعرفة الذاتية ، ومن المهارة الابتكارية ، هى الجرثومة الجنينية للاستدلال والتفكير الهادف أو القصدى . ونتيجة لهذا التأمل والتفكير جاء اكتشافه لقدرته فى تحصين نفسه بالأسلحة الصناعية للهجوم والدفاع ، ويضيف الى قوته الواهنة ، الناقصة النمو ، قوة الهراوة والمخل [1] ، ويغطى عريه بالثياب ، ويدفىء بالنار بدنه

---

(١) المخل : العتلة .

المرتجف من البرد ، وبأسوأ طريقة من الطرق البدائية ، الفجة ، يتيح لنفسه التزود بحاجياته المطلقة ، الأولية ! .

وظل الانسان الأول على هذه الحال قرونا طويلة ، آخذ يتدرج فيها شيئا فشيئا ، ومع ذلك كان التحسن طفيفا عديم الأهمية ، ولم يكن له أى أثر يذكر .

ولنا أن نراجع معلوماتنا فى التاريخ ، ونرجع بذاكرتنا فيما قرآنا الى الحالات والظروف التى ميزت ما أطلق عليه الحضارة فى أية أمة من الأمم التى تعتبر نفسها رائدة منذ ألف سنة ، أو خمسمائة سنة ، بل منذ ثلاثمائة سنة فقط . ثم نسأل أنفسنا كيف كان تمدينها ، وكيف بدأت حضارتها ، وكم بلغ مدى تفكيرها الذى قامت به ، على ضوء ما أنتجه فكر الانسان فى الخمسين سنة الأخيرة ؟ .

والحالة السيئة فى بحثنا تتركز فعلا فى أن تفكير الانسان اذا كان ينتج القليل الذى يمكن أن يعتبر تقدميا وذا نفع لنفسه ، ومعينا لغيره ، فهو ما يزال يفكر تفكيرا مقيدا ، وبالتالى كان محصوله ونتاجه محدودا ، ومعظم تفكيره مخطئا هداما !.. وبدلا من أن يتوصل الى السبب الحقيقى للاشياء ، وكيف يمكن أن يرد هذه الأشياء الى أصولها ، حيث يمكن أن تحلل وتسوغ وتغدو فى حدود المعقول لكى تروى كما يجب ، فهو فى الغالب يسمح الاصطخاب شعوره العاطفى الدافق بأن يخدع قراره ، ويضلل حكمه ، ويسدل الستار كثيفا قائما على النتيجة التى هى موضوع النزاع .

تطور الفكر :

ان ما سقناه اليك فيما مضى لم يكن الا قليلا من التوجيه الايعازى الى التجسيم فى الشكل الاقتصادى أو المنفعى لتفكير الانسان بالنسبة للاشياء التى تؤثر فى رغباته المباشرة أو حاجياته الذاتية . انه أنعم النظر أيضا وتأمل فى أصل المظاهر المختلفة للطبيعة . تلك الظواهر التى اجتذبت

انتباهه وسلم بأن أصلها هو فى بعض المصادر المجهولة ، خارج حدود نفسه . فوميض البرق ، وقصف الرعد ، وزئير العواصف الهوجاء ، والنشوء والارتقاء ، والنمو والازدياد ، والزوال المتتابع لجميع المخلوقات الحية ، وسبب وجوده فى هذه الحياة — مولده ، بقاؤه المؤقت ، موته — وانعكاس صورته التى تبدو أمامه كما لو كانت تحييه حين يركع عند حافة النهر ليروى ظمأه ، وظله الذى لا يفارقه فى أثناء النهار ، والذى يتبعه أينما سار فى أية جهة من الجهات الخلوية — كل هذه المظاهر المختلفة ، العجيبة ، كانت فى عقل الانسان الغر ، الساذج ، عديم الخبرة قليل التجربة ، غير المدرب ، كانت دائما وفى كل الأحوال ، تنسب الى الوسائل الغريبة ، والبواعث العجيبة التى وقف حيالها ، أو سار أمامها ، فى وهن وعجز وخوف .

ومن هنا نشأ الخوف أو معظمه ، وتجمع قدر كبير من الخرافة التى سرعان ما انتشرت فى جوه وغمرت أفقه العقلى ، وأضحت حياته ودنياه وعالمه والكون الذى يعيش فيه تصوغه وتكيفه وتسيطر عليه جميعا تأثيرات الخير والشر . وصار اغضاب أو ارضاء ربه أو شيطانه ، من جهة أخرى ، يستوعب جهود حياته ، ويطغى على مشاعره .

ومن هنا أيضا نما الشىء العجيب ، الغامض ، اللامعقول ، الذى نطلق عليه : الشعائر والطقوس « الدينية » ، والأعمال التى ما برحت موجودة بالحاح شديد وبكثرة حتى فى أرقى النظم الدينية وأكثرها نهوضا وتقدما فى الزمن الحاضر .. فالعرافة ، والودونية (١) ، والسحر الأبيض والأسود ، وعبادة السلف (٢) ، والتكفير بالدم ، والاعتراف ، ورقصة الحية ، وغير ذلك من فرائض وطقوس لم توجد أصلا فى السلطة السامية عند الانسان أو فى سيادته ، وانما فى غريزة « الخوف » الأساسية .

---

(١) طريقة سحرية اختص بها الزنوج .
(٢) فى الصين واليابان .

انني أحاول هنا أن أكشف عن حقيقة احتياج الانســان الى معرفة الظواهر الطبيعية عن نفسه ، واحتياجه كذلك الى النمو . والعقل النامى هو العقل العارف ، العقل المدرك ، الحاذق ، الفطن . ونحن لا نعرف ، أى لا نحصل على المعرفة ، الا حينما تتحدث وتقف موقف الاعتراض ازاء جميع من نختلط بهم ، أو نتعامل معهم ، أو تربطنا بهم صلة ، أى صلة ..

واذا كانت النتائج يمكن أن توفق بين حكمنا وذكائنا ، فاننا نقبل ونتقدم الى الامام نحو انتصارات جديدة ، وفتوحات عديدة ، والى معرفة أكبر وأكثر وأعظم ..

أما اذا أخفقت النتائج فى تنظيم نفسها وترتيبها مع حكمنا الصائب، فاننا نرفض أن نقبلها . بقطع النظر عما تقرره التعاليم والعرف السائد . وبهذه الطريقة وحدها نستطيع أن نؤكد استقلالنا ، ونحقق حريتنا ، وتثبت كفايتنا ، وثقتنا بأنفسنا . ومن ثم نحافظ عليها جميعا كرجال أحرار . وبالتالى يمكننا أن نوطد أقدامنا ونثبتها على طريق النمو والتقدم المستمر الدائم .

ان عقلك ، وعقلى ، وعقــول كل الناس قاطبة تفيض بل وتطفــح بالأفــكار والتخيلات الصبيانية ، والتصورات الوهميــة ، والأحاديث المنقولة ، والمأثورات والتقاليد الموروثة ، والخرافات ، وغــير ذلك من الصور والأشكال ، مما انتقل الينا عمن رحلوا من الحياة قبلنا .

أما انهم تركوا لنا الكثير من الأشياء النفيسة التى لها قيمتها والتى فيهــا الكثير من السعادة والبركة ، والكثير مما يستحق كل اهتمــام والاعتبار فهذا شيء معترف به ومسلم به قطعا ، والا يمكن بأى حال من الأحوال دحضه أو انكاره .

وأما أخطاؤهم وسوء فهمهم ، وعدم ادراكهم فقد كان له جميعا دور

واضح غاية الوضوح فى ميراثنا . بالاضافة الى القليل من درر الحقيقة التى خلفوها لنا وورثناها عنهم .

التدرج فى الارتقاء :

واذا كان الناس فى الماضى قد أخفقوا تماما فى اكتشاف القوانين المختلفة ، وعجزوا عن تفسير وتطبيق المبادىء المتباينة التى تدعم وتحكم الامدادات العجيبة ، المذهلة ، التى أمدنا بها العلم الحديث من أجل راحتنا ، ورفاهيتنا ، فلماذا اذن كان يجب أن نفكر ، أو حتى نأمل أو نتوقع أن عمق الأشياء فى الحياة ـ فلسفة الانسان وحكمته فيما يتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل ، مظهره ومنظره على هذا الكوكب السيار ، الغرض من وجوده فى هذه الحياة الدنيا ، خلقه من تراب ، ايمانه بالحياة بعد الموت ، وبعبارة أخرى أن الأشياء التى لها صلة بالدين ـ تحتاج من الانسان الى قدر كبير من الذكاء أو الدقة أكبر مما يحتاج اليه فى تأملاته عن الأشياء الأكثر بساطة بطبيعتها ؟ ..

ثم اننا يجب ألا نتغاضى أيضا عن الحقيقة القائلة بأن ما أوتيه الشباب المثقف من العلم لم يكن الا اقتصادا وتدبيرا للجماعات .. فالأمين على الوحى ، والحكيم ، والولى الصالح ، والقديس ، وغير هؤلاء كثير من أمثال هذه الصفوة المختارة والنخبة المنتقاة ، كانوا منذ قرون طويلة أصحاب جميع المعارف والمعلومات المنظمة ، وكانوا هم المسيطرين عليها . ومنهم ذاعت هذه المعارف وشاعت ، وامتدت أصولها الى القليل من الحواريين والأنصار والمتشيعين الذين اختيروا لكى توهب لهم بجميع ألوانها كل بحسب ميوله الخاصة ، أو خططه وأساليبه .

وبدأت الطباعة كفن تظهر الى الوجود منذ عهد قريب . وكانت الوسيلة الوحيدة الى التعلم قبل ذلك هى التلقين الذى يأخذ طريقه من الفم الى الأذن . وكانت العلوم والمعارف بالنسبة لعامة الشعب شيئا باطلا لا ينفع ولا يجدى فتيلا .. شيئا ما كان ليخطر على البال أنه سيدخل فى حيز الامكان .. وما كان ليعتبر وقتذاك من الأمور التى يشتهيها المرء

او يطمع فيها . حتى جاء الوقت الذى أنتجت المطابع فيه كتبا ومجلدات. وبدأت الكتب تتداولها الأيدى ، وراحت تغزو الأسـواق ، وتدخـل البيوت ، وتهفو اليها القلوب . وبذلك بدأ الناس يفكرون فى موضوعات أخرى خارجة عن نطاق كدح العيش وعناء الحياة .

تأمل كيف تم هذا التحول ، وكيف سلك طريقه ، وأقرن مع هـذا التأمل التفكير فى الحقيقة التى تؤكد أن معظم الناس الذين حملوا أمانة الوسائل والوساطات والامـكانيات لتحصيل المعرفـة ونشرها كثيرا ما تستحثهم دوافع سلبية ، فاسدة . . ويمكنك بعد ذلك أن تقدر تماما ضآلة عدد العقول الصافية بيننا التى تفكر بحق وبعمق من أجل نفسها ولنفع الآخرين . ولقد قام ذوو الخبرة فى هذا الموضوع باعداد بيـان جرىء يقررون فيه أن أعظم المفكرين على الاطلاق حتى الآن لايستعملون فى أحسن حالات تفكيرهم أكثر من عشرة فى المائة من قوة المخ الميسرة .

وسترى من هذا أن تطور مخ الانسان وتساميه الى حالته الراهنة كان عملية من عمليات التدرج فى الارتقاء منـذ تلك الأزمان السحيقة المتطاولة فى التاريخ . ولقد اشتمل على ما يعبر به فى الاصطلاح العلمى بـ « المحاولة والخطأ » ، وعلى طريقة الخلط فى الأشياء ، و ـ كمـا نقول ـ التخبط والتشويش مرة أخرى .

ولقد جاءت معظم معلوماتنا نتيجة لخبرة الانسان الفعلية ، ولكن الحياة فى عالم يفتقر فى الغالب الى التفكير أو السهولة واليسر فى اتاحة الفرصة للتفكير ، جعلت ملاحظته ومظهره ودلائل مستقبله العقلى تجاوز اتصالاته اليومية بالحياة وبالعالم الفيزيقى الذى حوله .

حقيقة ان سعيه ومتابعته لحاجياته المطلقة فى الحياة شغلته تماما . ولم يعـد لديه وقت للتفكير فى أى شىء آخر .. وظل مشتغلا فى خلق حياة ، حتى لم يعد لديه وقت يكفى لخلق حياة ! ..

ولكن الخمسين سنة الأخيرة شــهدت تحولا عجيبا غاية العجب فى طريقة الانسان فى التفكير ، وفى الحياة الناتجة عنه . ولقــد كان ، فى الواقع ، تحولا فى الميزان الهائل ، الغريب ، الشامل . لا لأنه أطول فى الارتقاء ، وانما لأنه ثورة صادقة مخلصة فى الأخلاق . لأن الانسان بالرغم من أخطائه السابقة وتعثره ، قد اكتشف أخيرا أهمية دوره . واذا به ذات يوم يفيق من غفلته ليتنبه الى الحقيقة الأساسية لوجوده .. لقد تعــلم أخــيرا أن القــوة أو المقدرة التى تجعــله يعيش ، ويخلق ، ويحكم ـــ وبالاختصار ، ان كل القوة أو كل القدرة التى يحتاج اليها أو التى قد يحتاج اليها ذات يوم ، بدلا من أن يسعى فى الحصول عليها من منابع بعيدة بعيدة ، تنبع من ذات نفسه ، بل من داخل ذاته .

استعمل طاقة مخك :

ولقد تعلم الانسان أخيرا بالمثابرة الدائمة ودقة التطبيق ، انما يستطيع أن يجعل له فى فكره شكلا ، أو لونا ، أو صفة ، يستطيع ان يجعل له على السطح الفيزيقى كيانا ، ويكون له وجودا . وألهم بوساطة هذا الاعتقاد المفاجىء الاستهانة بالشدائد ، والتغلب على المصاعب ، والسمو الى القمة والارتفاع الى السموات العلى . فمن مخزن طاقته الذى استكشفه حديثا جاءت القاطرات ، والسيارات ، والطائرات ، والآلات المبرقة ، والتليفونات والراديو ، والتليفزيون ، والصحف ، والمجلات ، والمكتبات العامــة ، والسفن التى تمخر عباب المحيطات متحدية الريح ، مزدرية بحركة المــد والجزر ، والغواصات التى تجوب أغوار البحار السحيقة ، والكهرباء للاضاءة والحرارة وتوليد القوة ، ووسائل النقل العديدة ، وغير ذلك من مئات المؤسسات النافعة ، والعيادات المجانية ، والمستشفيات ، والعمليات الجراحيــة بدون ألم ، وهكذا تستمر القائمة ، وتظــل مستمرة الى مالا نهاية .

وفجأة يصطدم الانسان مع نفسه ، ويعترف بالأمر الواقع . وتكون النتيجة أنه يخلق بأعجــوبة دنيا جديدة .. دنيا جــديدة قامت بخلقها وتصويرها ودعمها ورفع شأنها قوة فكره الخالقة ، الخارقة . ومنذ تلك

الفترة من الزمن بدأ الانسان عمله ، وبدأت تظهر القوانين والمبادى .

هنا يجدر بك ــ يا قارئى العزيز ــ أن تسأل نفسك ــ بينك وبينها ــ ما هى عقليتك ؟ وما مقدار ما تستعمله من طاقة مخـك ؟ .. وما هى العواطف ، أو المشاعر ، أو الأحاسيس التى تتسلط عليك وتؤثر على سلوكك ، أو التى تخيم على سماء تبصرك ، أو التى تغيم فى أفق حكمك؟ وما هى الأوهام والتخيلات التى تسيطر بها عقول الآخرين على عقلك وتملؤه بالمخاوف والظنون ؟ .

أخرج من « البدروم » أو السرداب الذى تقيم فيه .. أخرج الى نور الشمس الساطعة ، واعتن بمظهرك ، واهتم بهيئتك .. وكن دائما على أحسنك .. وانظر الى نفسك بتفاؤل ، وثقة ، واعتداد .. ولا يضيرك بعد ذلك كثرة ما أخطأت فى الماضى سواء فى حكمك ، أو فى اتجاهك أو فى سلوكك .. بل ابدأ توا من الآن .. من هذه اللحظة .. لكى تكون سـيد نفسك .

ومهما تكن الأفكار التى سيطر بها الآخرون على عقلك ، ومهما تكن كميتها ، فلا تتغاض عن الحقيقة المذهلة الهامة وهى : انه لا يزال بعقلك بقية باقية تعمـل على تقويم شخصيتك ، وانماء ذاتيتك ، ودفعـك الى الاقدام ، وحثك على الابتكار .

ومن ضباب الحيرة والارتباك ، ومن وراء الغيوم المتلبدة فى سماء أفقك ، ومن خلف الحجب الكثيفة الغامضـة التى تخفى وراءها القلق والاضطراب ، ستخلق ذاتك خلقا جديدا ، وستثبت وجودها وكيانها .

لقد آن الأوان ، وحان الحين ، للتحسن الكامل ، والرقى الأصيل ، والتعبير بصدق عن ذاتيتك .. وستتدفق عليك حكمة العصور الماضية ، وستمتلىء علما ومعرفة من حيث لا تدرى . بينما يزداد نور اليوم الجديد فى الضياء ، والتزود بثروة طائلة لاحد لها من الفكر الجديد ، والفرص السعيدة المناسبة . وسيظل نور شمس الأمل مشرقا ، ساطعا ، متألقا فى بهاء . يشير اليك بعظمة ، واجلال ، واكبار .

وانس منذ هذه اللحظة التى تعيشها : من كنت ، وكيف كنت ، وماذا كنت فيما مضى من أيام عمرك ، ولا تنظر الى الخلف •• ولا تأس على ما فاتك .. ولا تفكر مطلقا فى الماضى أو فى أخطاء الماضى .

« ما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى انت فيها » ••

وتعلم انك اكتسبت خبرة وتجربة من كل ما مضى .. وامض فى طريقك قدما نحو حياة جديدة مشرقة يمكنك أن تواجه فيها رحلة جريئة ، أو مغامرة شيقة ، أو عملا خالدا عظيما تفخر به الأجيال من بعدك .

العقل والمادة

ان العقبة الكئود التى تقف فى طريق التقدم السيكولوجى هى العجز الشائع والقصور المنتشر بين الناس عن أن يفهموا أو يدركوا كيف ان شيئا كالعقل فى غاية الدقة يستطيع أن يحكم شيئا فجا ليس على شيء من النقاء ، بل على كثير من السخف كالمادة .

فلنتأمل المادة أولا وقبل كل شيء .. انها ليست كما تبدو .. اذن فما هى ؟ .. انها ثابتة وحقيقية ومحسوسة . ولكن مم يتكون ثباتها وحقيقتها ؟ .

اننا اذا استطعنا الاجابة على هذه الأسئلة ، واذا أمكننا أيضا أن نعرف أو نهتدى الى شيء يدلنا عن العقل ماذا يكون ، استطعنا ان نفهم جيدا العلاقة بين هذين الشيئين الهامين ، ونعرف فعل أو تأثير أحدهما على الآخر .

ان أى نوع خاص من المادة يتركب من نوع خاص من دقائق صغيرة نسمى « جزيئات » (١) . فهناك جزيئات من الماء ومن الحديد والنحاس ، ومن الملح ومن الزجاج ومن جميع أنواع المادة . وجزيئات أى مادة تختلف عن جزيئات كل المواد الأخرى .

وجزيئات المادة تتألف من دقائق أصغر حجما وأقل هدوءا تسمى « ذرات » (٢) أو « أطمات » . فالجزىء من الماء ، مثلا ، يتركب من ذرتين من الأيدروجين ، وذرة واحدة من الأكسجين .. وكوب من الماء لا يتأثر باللمس أو بالرؤية كالغاز الجاف .. ولكنه لا يحتوى على أى شيء آخر . وقطعة من الصخر الصوان أو البللور الصخرى تتركب من غازى الاكسجين والسليكون ، ومع ذلك فهى جامدة ولكنها هشة ، سهلة

(١) الجزىء : جزء من المادة يحتفظ بصفته الطبيعية الخاصة ، وهو يتألف من عدة ذرات أو أطمات .

(٢) الذرة أو الاطمة : أصغر جزء من المادة .

الانكسار . ولقد كان يستعمل هذا الصوان منذ قديم الزمان فى صنع رءوس الحراب الحادة .

وصلابة المادة تتوقف على درجة حرارتها . فالماء فى درجة التجمد يصير ثلجا جامدا هشا ، وفى درجة ٣٣° فهرنهيت يصير سائلا ، وفى درجة ٢١٢° فهرنهيت يغدو بخارا ، وفى درجة حرارة القوس الكهربى يصير أكسوجينا وهيدروجينا . وينطبق نفس الشىء على أية مادة أخرى . اذا رفعنا درجتها الى أعلا حد ممكن صارت غازات . حتى « الرمل » الذى يتكون منه سطح الأرض عبارة عن صخور متكسرة الى قطع دقيقة جدا . واذا رفعنا درجتها الى أعلى ما يمكن تحول الى أكسجين وسليكون .

ولقد كانت هذه الأرض حينا من الدهر حارة جدا . وكانت عبارة عن كرة من الغازات المتوهجة ، وكان حجمها اكبر من حجمها الحالى عدة مرات . وحينما بردت تقاصت ثم تجمعت بعض غازات لتكون أو تشكل جوها .

والجزىء ليس شيئا صغيرا صلبا كالرصاصة الصغيرة أو قطعة الرخام الصغيرة . ولكنه مجموعة من الذرات السريعة الدوران والتهويم بينها وبين بعضها مسافات كبيرة ، ومساحات فسيحة نسبيا . حتى ان الجزىء نفسه يوجد فيه فراغ أوسع من المساحات المليئة .

نحن اذن نرجع أصل المادة الى الذرة التى تتجمع حشود منها كثيرة وتموج مع بعضها ، وتدور لتكون جزيئات من أنواع مختلفة من المادة .

ولنتأمل الآن طبيعة الذرة نفسها وتركيبها :

ان الذرة ، كما قلنا عن الجزىء ، ليست شيئا صغيرا صلبا ، جامدا جافا . ولكنها شرارة صغيرة جدا غير منظورة من كهرباء موجبة مع

شرارات من كهرباء سالبة تدور حولها . وهذه الشرارة أو الومضة الكهربائية الموجبة التى فى قلب الذرة تسمى « بروتون » ، وهى التى تسبب الوزن . والشرارات الكهربائية السالبة التى تدور حولها تسمى « الكترونات » جمع « ألكترون » . وهذه تدور حول النواة فى أفلاكها بسرعة هائلة ، وهى التى تسبب اللون وتعين النوع (١) . وهذه الشرارات الكهربية الايجابية والسلبية ليست كالشىء الذى نعرف دائما انه «المادة» وانما هى — فى الواقع — « قوة » (٢) . ومع ذلك فان كل نوع من المادة الصلبة فى العالم تتألف منها . ولو استطعنا ان نطفىء كل تلك الشرارات الكهربية الصغيرة لامحت على الفور هذه الأرض الصلبة ، وتلاشت بما فيها وما عليها وأصبحت فى العدم المطلق .

وبالتحكم فى حركة الألكترونات ، أمكن تحويل بللورة غاية فى الصغر الى صمام راديو .. أو بطارية تطلق ضوءا من اللون الذى تريده .. أو مولد كهربائى يطلق تيارا من مجرد شعاع شمس .. أو فريجيدير يبرد الى مائة تحت الصفر . كل هذا من بللورة دقيقة . أو من ثقب ابرة .

وتتألف ذرة الأيدروجين من بروتون واحد وألكترون واحد . فهى اللبنة الأولى لبناء المادة فى صورتها المألوفة .

ولقد ظن العلماء الفيزيقيون منذ زمن طويل ان ما سموه « بقاء المادة » كان جزءا من المنهج العام للاشياء . وظنوا أن المادة لا يمكن أن تتحطم ، مع ان شكلها يمكن ان يتغير . فاحتراق كتلة من الخشب ، مثلا يمكن أن يغيرها الى أشكال من الغازات ، والدخان ، والرماد ، اذا وزنت

---

(١) انظر مجلة « المقتطف » عدد مارس ١٩٢٥ ص ٣٥٨ وانظر أيضا كتاب « عالم الروح فى ضوء العلم الحديث » للاستاذ احمد فهمى ابو الخير ص ٨٠

(٢) انتهى بعض العلماء الى أن الذرة نموذج مصغر للمجموعة الشمسية .

جميعها يأتى وزنها كوزن قطعة الخشب بالضبط . وهذه الحقيقة تنطبق على كل أنواع الاحتراق وأشكال التحلل العادية الأخرى ، ولكن هناك نقطة لا تتجافى مع الواقع ولا تبعد كثيرا عن الحقيقة . هذه النقطة تناولت حرارة الشمس الداخلية الهائلة ، الرهيبة . ان أطنانا كثيرة من مادة الشمس تفنى تماما فى كل يوم بمجرد التغير ، لا الى أشكال أخرى من المادة ، ولكن الى قوى من الضوء والحرارة . وفى استطاعتنا اليوم أن نستغل نفس النوع من الهدم التام أو التدمير الكامل للمادة فى بعض معاملنا الفيزيقية باستعمالنا الحرارة الشديدة وقوة التيار الكهربائى المستمرة العالية .

والمقصود من كل هذا أن المادة الفيزيقية ما هى الا مجرد شكل من أشكال القوة أو الطاقة . وليس هذا نفس ما يقال من أن المادة الفيزيقية وهم وخيال . أو انها شىء غير ذى أهمية . انها صلبة صلدة فى غاية المتانة . ولكنها مع ذلك تتركب من قوة فى شكل شرارات كهربية صغيرة . لها وزن ، نعم .. ونجتذبها اليها تلك القوة الأخرى التى نسميها « الجاذبية » و القوة الجاذبة ، أو قوة تجاذب المادة ، أو الجاذبية العامة. فقالب الطوب يتركب من شرارات كهربية ، ولكنه اذا سقط ، بقوة الجاذبية الأرضية على رأس فرد من الأفراد ، فانه ينثر أو يبعثر الشرارات الكهربية التى يحتويها الرأس . وما يمكن فى هذه المناسبة بأنه ما من قوة الا ولها وزن . والضوء شكل من أشكال القوة . كما ان الحزمة الضوئية لأشعة الشمس المارة بقرب كوكب سيار تميل اليه بقوة الدفع الجذبى للكوكب .

ان هناك ما يقرب من التسعين نوعا من الذرات فى الكون .

وهناك نوعان اثنان فقط من الشرارات الكهربية تتكون منها : شرارات موجبة ، وشرارات سالبة .

وأخف ذرة هى التى نطلق عليها « الايدروجين » . وتحتوى على

شرارة موجبة من الكهرباء مع شرارة كهربية سالبة تدور حولها .

والهيليوم [١] ثانى ذرة فى الخفة . ويحتوى على شرارة كهربيـة موجبة مع شرارتين من الكهرباء سالبتين تدوران حولها .

لقد كنا نظن فى وقت ما أن الهيليوم لا وجود له فى أرضنا . ولكن المطياف [٢] بين لنا أن فى الغلاف الجوى للشمس غازا لم نألفه قط على وجه الأرض ، وأطلقنا عليه «الهيليوم» نسبة للكلمة اليونانية «هيليوس» ومعناها « الشمس » . وفيما بعد ذلك وجدناه فى الأرض ، اذ اننا نستخرجه الآن من الغاز الطبيعى لنستخدمه فى سفن الفضاء ، لأنه أقرب الى الأيدروجين فى الخفة ، فضلا عن أنه لا يشتعل اذا صادفه وميض برق أو اعترضته شرارة .

وفى بعض المعادن أو الفلزات الثقيلة ذرات تتركب من شرارة كهربية موجبة مع ثمانين أو تسعين شرارة سالبة تدور حولها . ولا يوجد أبدا أكثر من شرارة واحدة موجبة . ووزن أية مادة خاصة يحددها عـدد الشرارات السالبة التى تدور حول الشرارة الموجبة .

اننا نعرف جميعا عن طريق الخبرة والتجارب الكثيرة أن الشراره الكهربية تزول وتتلاشى بمجرد رفع أو ازالة الطاقة المولدة لها . فاذا كانت الشرارة ناشئة عن آلة عضوية ، فانها تموت بمجرد وقف دوران هذه الآلة . واذا كانت ناشئة عن مولد كهربائى ، فانها تنطفىء اذا أبعدنا القوة من المولد . واذا كانت ناشئة عن بطارية ، فانها تخمد اذا انتهى مفعول البطارية . أى أن الشرارات تنقطع بانقطاع التيار الكهربى .

---

(١) الهيليوم : غاز شمسى خفيف ، عديم اللون ، غير مشتعل .
(٢) المطياف : آلة الحـل الطيفى لاظهار طيوف الاشعة المنبعثة عن الاجرام السماوية .

والسؤال السديد هنا : ما هى القوة أو القدر التى تغذى الشرارة الكهربية الضئيلة التى تتكون منها المادة ؟

وهذا السؤال يحملنا على التأمل والتروى ، والى امعان الفكر ..

ان العقل — كما أسلفنا القول — موجود فى كل مكان . وهو شىء يغاير المادة ، فهو لا يتحيز فى مكان ، وهو يعلو على الزمان والمكان ، ولقد عرفت السلالة البشرية هذه الحقيقة منذ عدة قرون . كما فهمها ولمسها العلماء والفلاسفة فأطلقوا عليه « العقل العالمى العام » .

وفى السنين الأخيرة للعلم والفلسفة توصلنا الى فهم منطقى وادراك معقول أكثر للعقل العالمى ، ولكننا لم نكن ، حتى وقت قريب جدا ، قد بدأنا نستبين ونستشف صفة وقدرة ذلك العقل العالمى الشامل . ونحن مع ذلك لا نعرف عنه بعد الا القليل ، ولكننا نعرف بعض أشياء شائقة وعلى كثير من الأهمية تسلط الأضواء على أشياء كانت خافية عنا ، غامضة علينا . ثم هى تبشر فى المستقبل القريب بكشوف فى غاية الأهمية .

« فكثيرا ما تبدو لعقولنا القاصرة أحداث الحياة قاسية ظالمه ، أو مفككة غير مترابطة ، أو مباغتة غير متوقعة ، لمجرد عجز عقولنا عن الاحاطة بكل نواميس الطبيعة ، وبكل أحداث الحياة فى ماضيها وحاضرها . ولكن الأمر الوحيد الذى لا تعجز عقولنا عن فهمه وعن تصور صحته هو وجود نواميس طبيعية تحكم هذا الكون من أكبر أحداثه الى أتفهها : من ميلاد عبقرى الى ميلاد فراشة ، ومن ازدهار حضارة الى ازدهار زهرة ، ومن انتهاء دولة الى موت نملة ، ومن انفجار بركان الى اشتعال ثقاب ، ومن اصطدام كوكب بآخر الى اصطدام كرة بقدم طفل صغير ! . .

« وذلك لأنه اذا كانت هذه النواميس الطبيعية تحكم الكليات

الكبرى فهي تحكم الجزئيات الصغرى أيضا ، واذا اضطربت الجزئيات الصغرى كان ذلك علامة لا تنقض على الفوضى وعلى أن زمام الحياة قد آفلت ، وأدى الى خلل الكليات الكبرى فالوجود كله وحدة متناسقة محكومة بالعقل الأعظم ، العقل العام . وخلال هذا العقل العالمى الأعظم ، وبواسطته تعمل عقولنا الضئيلة فتوجه ارادتنا مختارة الى الصواب مرة ، والى الخطأ مرات ومرات . وكل خطأ سابق سيصلحه ألم لاحق ، وكل ألم لاحق نتيجة محتومة لخطأ سابق ، وهكذا فى حياة لا تقبل الفناء ، ولكن تقبل التردد بين السعادة والشقاء ، وبين البهجة والعناء ، طبقا لارتباط النتائج بالمقدمات » (١) .

ومن الحقائق العلمية التى تأكد منها بعض علماء النفس ودارسو الظواهر الروحية منذ زمن طويل ، أن تدبير الخلق والتكوين سيكون ناقصا بدون القوة السارية ذات الاشعاع الفاره ، المدرك البصير . أما الذى نعرفه عن هذه القوة الهائلة ، فهو فى الحقيقة ، يتركز ويتجمع حول اكتشاف القوة المعروفة بـ « الأشعة الكونية » التى قاسها ودرسها العلماء فى جميع بقاع العالم ، وما تزال الى اليوم تحمل اسم مكتشفها الدكتور « مليكان » الأمريكى الذى كان مديرا لمعمل كاليفورنيا الطبيعى . وقد اكتشفها بعد بحث وتنقيب داما عشرين سنة .

الاشعة الكونية :

والأشعة الكونية قصيرة جدا . ومع ذلك فهى ذات أطوال ومسافات عديدة . وهى تختلف عن أشعة الطيف ، وأشعة س بأن لها قوة لا حد لها فى الاختراق والتغلغل . وأن لها قوة نفاذة هائلة . وهى تصل الى الأرض وتحطم ذرات الهواء التى تعترض سبيلها وتجرى فى أجسامنا ، ولكن لقلتها لا نحس بها بعد أن حجب هواء الجو الأكثر منها (١) . وانها

---

(١) مفصل « الانسان روح لا جسد » جزء ثالث ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .
(٢) مجلة « العربى » الدكتور أحمد زاكى . العـدد ٢٨ — مارس ١٩٦١ .

القادرةعلى تحطيم وابادة كل ماعلى وجه الأرض من حياة ، لولا ان غلافنا الجوى يتخذ احتياطاته لمثل هذه الأحوال .

وقوة الأشعة الكونية على عمق خمسمائة قدم تحت سطح الأرض، كقوتها على سطح الأرض تقريبا . وهى تخترق حجابا من الرصاص سمكه ستة أقدام قبلما تخمد أو تنطفىء فى حين أن أشعة اكس وهى اقوى الأشعة المعروفة تخترق حجابا سمكه نصف بوصة فقط . وقد ثبت علميا أن الأشعة الكونية بها من الطاقة مقدار يقع ما بين ١٠ بلايين بليون الى ١٠٠ بليون بليون فولت ألكترونى . وأن هــذه الأشعة مأتاها لا من الشمس ولا مما حول الشمس ، ولا حتى من مجرتنا نحن ، ولا من أى من ملايين الشموس فى نظام مجرتنا . ولكن من خارج هذه المجرة ، من مجرات بعيدة أخرى .. من حيث لا يعــلم مصدرها الا علام الغيوب ، الذى ليس لعلمه حدود (١) .

ونحن ما زلنــا الى الآن لم نتوصــل الى قياس الأشعة الكونية مطلقا .

ومن المفيد أن نثبت هنا بعض الحقائق التى أشار اليها الدكتور رأفت واصف أستاذ علم الجوامد بعلوم القاهرة فى مؤتمر علمى عقــد بالاسكندرية وهى : أن الأشعة الكونية ، وهى عبارة عن فتافيت ذرات أمكن للعلم أن يدرك كتلتها وسرعتها وشحنتها ومسارها .. بدون أن يراها بأى وسيلة مباشرة ، وذلك اعتمادا على حقيقة بسيطة .. هــذه الحقيقة تقول ان كل « فتفوتة » من هذه « الفتافيت » اذا مرت داخل غرفة من ضباب الكحول ، فان قطيرات دقيقة جدا من الكحول تتكشف على مسارات هذه الفتفوتة اللامتناهية فى الصغر . فاذا تعرض هذا المسار لجاذبية مجال مغناطيسى قوى ، فانه ينحنى بقدر معلوم يتوقف على كتلة هذه الفتفوتة .

(١) مجلة « العربى » الدكتور احمد زكى ــ العــدد ٣٦ ــ نوفمبر ١٩٦١ .

وبذلك أمكن بالتصوير الفوتوغرافى تتبع مسارات الأشعة الكونية فى غرفة الضباب بتصوير تكثف القطيرات وتأثرها بمجال مغناطيسى قوى (١) .

وجاء السير جيمس جينز الفلكى الكبير والعالم الفيزيقى ، بنظرية مؤداها أن الشموس ستفنى ببطء بفناء جوهرها الذى تمده بالضوء والحرارة ، وانها لفى هبوط تدريجى .

وتناقش الأستاذ ميليكان مع السير جيمس فى هذه النظرية . وقال ان تحطيم ذرة من المادة فى شمس يتولد منها أطوال موجات معينة من الطاقة التى تجتاز أطوال موجات أخرى ، وتتصادم معها فى مكان ما فى الفضاء بعيد . وهكذا تتولد شرارات كهربية ضئيلة لذرة جديدة . وهكذا تأتى الى الوجود مادة حديثة الخلق وتدخل فى الشموس . ومن ثم تتراكم فى سحب الغبار الكثيفة من السديم (كالمجرة) الذى تتولد منه شموس جديدة وعوالم جديدة .

وليست هذه المجرة التى تبلغ هذا الحد من الضخامة التى لا يقوى العقل على استيعابها الا واحدة من كثيرات لم يحصها العد . وبقى أن تعرف أن أقرب مجرة لمجراتنا تبعد ٧٠٠ ألف سنة ضوئية (٢) .

ان هذه الاعتبارات جميعا تنقلنا الى الخطوط الأمامية للمعرفة الانسانية فيما يتعلق بالعقل والمادة من جميع النواحى ، وفى شتى الصور . ونحن — بطبيعة الحال — لا نعرف الحقيقة كلها . ولكننا نعرف أن المادة تتألف من قوة تظهر واضحة جلية كشرارات كهربية دقيقة .

ولدينا باعث طيب للاعتقاد بأن الأشعة الكونية هى القوة الأكيدة للعقل العالمى العام الذى تتولد من قوة فعله الشرارات التى تتألف منها

(١) جريدة الاخبار بتاريخ ١٩٦٨/٨/٦ .

(٢) عن « قصة الكون من السديم الى الانسان » للدكتورين محمد جمال الفندى ومحمد يوسف حسن .

ذرات المادة . واذا كانت المادة صورة من صور القوة ، وكان العقل صورة أخرى من صور القوة ، فالعقل اذن لابد أن يكون عنده القدرة على تكييف المادة . تماما كأية قوة عندها القدرة على تكييف أية قوة أخرى . ومن وراء هذه القوى جميعا قدرة عالمية عندها خزائن كل شيء . قدرة عالية حكيمة ، تدبر الكون وتنظم العالم .

ولا حاجة بنا لكى نذهب بعيدا لنتعلم أن العقل قوة . ففى استطاعتنا أن نتعلم الدرس من ذات أنفسنا .. من أجسامنا .. ونعمل بالآية الكريمة: « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

ان أيدينا وأذرعنا تتحرك بواسطة العضلات ، أما هذه العضلات فانها لا تعمل الا اذا استحثها أو استثارها فعل ، ويطلق الأطباء على هذه الاستثارة أو هذا المنبه « الطاقة العصبية » . وان هو الا مجرد اسم ، حتى اننا لو قلنا ان الشيء الذى يحث العضلات على العمل هو « الطاقة العصبية » لا العقل ، لأمكن أن يقال بأن الطاقة العصبية هى القوة التى يمكن أن تحكمها وتوجهها القوة العقلية ، ولهذا فان القوة العقلية يمكن أن تكون ، فضلا عن ذلك ، القوة الأولى .

وهناك حالات من النفس كالخوف والغضب تعد من القوى الشديدة للغاية . فهى تؤثر بشكل خطير على جميع الأعضاء تقريبا بما فيها غدد الجسم .

العقل الشافى :

وهنا نستطيع أن نضع أيدينا على سر جميع الأدواء ، وعلى السبب المباشر للشفاء من جميع الأمراض والعلل ، بصرف النظر عن الوسائل المستعملة . فالدواء قد لا يشفى ، وكذلك الجراحة ، وانما الشفاء يجب أن يكون عن طريق العقل الخالق الذى يؤدى عمله ويقوم بالمهمة خلال أجزاء معينة من مخ الفرد . والفرد يمكنه ، تحت قيادة علم النفس العملى الحديث وارشاداته وتعليماته ، أن يعمل قدرا كبيرا بطريقة ذهنية ليساعد

على عملية الشفاء ، حيث تكون النتائج فى بعض الأحيان مذهلة للغاية .

ولكننا لا نعنى بهذا أن نوجه الاهتمام الى القوة الشافية بالطرق والوسائل النفسانية ، وانما غرضى الذى أهدف اليه هو اقامة الدليل على أن المادة ليست حرونا ولا جموحا .. وليست صعبة كما تبدو .. وان العقل قوة قديرة ، ماضية ، خالقة ، فعالة لما تريد ..

ولنضرب مثلا المادة فى حالة المرونة النفسية أو التشكيل النفسى بـ « الصور الفوتوغرافية للأرواح » . فبعض ما يطلق عليه صور الأرواح نجده ملفقا كاذبا ، ولكننا كثيرا ما نرى صورا من هذا النوع حقيقة صادقة لا يتطرق اليها أدنى شك . فالتصوير الروحى لأرواح أو لمناظر أو لمخلوقات غير منظورة من الحاضرين يتم بتأثير مباشر من عقل روح متمرنة فى اللوح الحساس تستخدم فيه طاقة خاصة ينبغى ان تنبعث من جسم الوسيط أو الوسيطة . وينبغى ان يكون الموضوع كله تحت اشراف روح أو أرواح مرشدة متمرنة بدورها جيدا على كيفية استخدام هذه الطاقة . وقد يحتاج الأمر أحيانا الى استخدام كاميرا وقد لايحتاج، كما قد يحتاج الى جهاز للأشعة فوق البنفسجية أو دون الحمراء ، وقد لايحتاج الا لهذا ولا لذلك بحسب نوع الطاقة وخبرة الأرواح المرشدة وامكانياتها ، ووسائل العمل التى لديها فى جسوم الوسطاء .

وهذا التأثير المباشر للعقل فى المادة يبلغ أوجه فى عالم الروح حيث يكون العقل فى أوج ازدهاره وحريته ، وحيث تكون المادة الصلبة أسرع اهتزازا بكثير من الضوء البنفسجى ، وهو أسرع الألوان اهتزازا على المستوى الأرضى ، وهذا التأثير يتحكم فى كل مظاهر الحياة هناك (١)

---

(١) للمزيد من المعرفة عن « الصلة بين العقل والماده » راجع مفصل « الانسان روح لا جسد » طبعة رابعة الجزء الثانى ص ١٢٥ وما بعدها الناشر — دار الفكر العربى .

ولهذه الصور قدرة على التشكل تكفى لجعل الغلاف الجوى المشبع كاسرا للضوء لدرجة تتيح للعين أن تراها . كما تكفى ايضا لجعل الأثر المتجمع يسجل فوق الصفحة الفوتوغرافية أو اللوح الحساس .

اذن فالصور الفوتوغرافية « للارواح » انما هى فى واقع الأمر ، صور لوجوه طيفية وأشكال حقيقية .

نظرية انشتاين :

وهكذا قد ظفرنا بلمحة عن الطريقة الخلابة ، الخلاقة ، للعقل العالمى ، انها لمحة خافتة ، خاطفة ، عابرة .. وانها لحقيقة ولكنها لمحة .. فهى تخلق الشرارات الكهربية فى ذلك الشىء العجيب الذى نسميه « الأثير » أو « الفضاء المطلق » .. وتدوم [1] هذه الشرارات فى أشكال من أنواع مختلفة من الذرات والجزيئات . وفى شحنة الذرات والجزيئات تقذف بالصورة الذهنية الواضحة لذاتية النبات والحيوان . ومن ثم تتحرك الذرات والجزيئات لتكمل الصورة . تماما كالهواء المحفوظ فى المعمل السيكولوجى الذى يتحرك ليملا الوجه أو الهيئة الخيالية التى يراها الروحانى .

ويقول انشتاين أيضا : ان كتلة أى جسم تزداد بازدياد سرعته ، وأنه يتحول تماما الى طاقة اذا بلغت سرعته سرعة الضوء [2] .

ولا يفوتنا هنا أن نأتى بما يقوله هربرت سبنسر جونز مؤلف كتاب « الفلك العام » من « أن الضوء يستغرق مائة ألف سنة ضوئية ليصل

---

(١) التدويم : الدوران بسرعة شديدة .

(٢) عن « تطور علم الطبيعة » تاليف البرت انشتاين وليوبلد انفيلد — ترجمة الدكتورين محمد عبد المقصود النادى وعطية عبد السلام عاشور ص ١٤٠ .

بين طرفى المجرة (١) . ومعلوم أن الضوء يسير بسرعة ١٧٦٫٠٠٠ ميل فى الثانية ، أو ٣٠٠ ألف كيلو متر ، وعلى هذا فان السنة الضوئية تعادل ١٠ مليون مليون كيلو متر » (٢) .

وجدير بطلاب علم النفس أن يتطلعوا الى دراسة العقل والمــادة من أصدق وأوسع مصادرها . وستمدهم هذه الدراسة بالادراك العميق ، والفهم الدقيق للحكمة المذهلة ، والقوة النابضة ، فى أنحاء الكون جميعا. تلك القــوة وتلك القــدرة . وتلك القدرة التى تصطخب فى كيانهم . وستجعلهم يعرفون أن العقــل هــو الجوهر الأزلى والقدرة الأبدية ، السرمدية .. لأن هذه الدراسة هى التى تحدد معالم الطريق الى حياة أفضل وأسعد وأرقى ، وأكثر خصوبة ووفرة .

والفرد لا يمكنه أبدا أن يدرك أو يتأمل فى المنهج الحكيم العجيب للأشياء فى هــذه الحياة ما لم يكن على وفاق تام مع الحكمــة السرمدية الكائنة خلف المنهج الذى سيكون له الأثر الفعال فى توجيهه صــوب الانطلاق والتحرر من ربقة الأشياء التى تقيده ، وتستبعده ، وتخيب أمله ، وتحبط مسعاه .

---

(١) يمكن وصف المجرة بأنها عجلة مرصعة بالنجوم تدور فى الفضاء . وتستغرق مجموعتنا الشمسية التى لا تعدو ان تكون شمسنا احدى هذه النجوم ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ من القرون لتتم دورة كاملة وهى منطلقة بسرعة ٢٠٠ ميل فى الثانية . (غرائب الطبيعة بجريدة الاهرام فى ١٩٦٤/١٢/١٨)

(٢) عن « قصة الكون من السديم الى الانسان » .

انك لعجيب أيها الانسان

حقا انك لعجيب أيها الانسان .. عجيب غاية العجب لدرجة لا يمكن أن تتصورها أو تحلم بها ..

ربما تكون قد صدمت أو نكبت فى حياتك ، أو أصبت بخيبة أمل أو حبوط مسعى ، وبلغ بك الأمر فى بعض الأحيان أن تشعر وكأنك لا قيمة لك .. وتحس أنك لا تساوى شيئا البتة .

انك لكذلك أيها الانسان ..

والشيء العجيب عنك ، ولكنه لا يعدو الحقيقة والواقع ، هو أنك الوحيد الفريد من نوعه فى هذه الدنيا ، ولا يشبهك أحد ! ..

ان وجاهتك ، ووسامتك ، لا يمكن ان تكون لمخلوق من المخلوقات الأخرى . فهذه صفات تنفرد بها وحدك .

وان لعينيك لبريقا متألقا ، وليس لأى مخلوق آخر سواك مثل هذا البريق فى عينيه ..

وان فى صوتك لنغمة عذبة لا يمكن أن تصدر من أى حنجرة أخرى ..

وان فى ابتسامتك لسحرا يخلب الألباب ، ويجتذب الأفئدة ، ولن تبدو على أى وجه من الوجوه الأخرى .

وانك لتحب كما لو لم يكن هناك من يحب على وجه البسيطة سواك ..

وانك لعلى علم بأشياء ليس لأى مخلوق آخر أى علم بها .

وانك لعلى ذكاء حاد ، ونبوغ عبقرى ، ليس لأحد آخر سواك أى نصيب منه ..

وان ما عندك من المواهب يختلف فى الكم والكيف عن مواهب أى فرد آخر ، مهما يكن شعورك فى بعض الأحيان بأنك لم تكن موجودا حين كانت المواهب توزع على **مستحقيها** ..

واذا فكرت مرة أنه ليس فى الدنيا أى شىء يمكن أن تقدمه لك أو تفعله معك ، فهذا غير صحيح .. ففى العالم مكان لك ، واذا أنت لم تملأ هذا المكان فسيظل شاغرا لأنه وجد لك ، وخلق من أجلك ، وليس لأى شخص آخر سواك أن يملأه ..

وفى الكون عمل سعيد مناسب لك فى انتظار أن تقوم بتأديته . واذا أنت لم تؤد هذا العمل ، فسيظل معطلا ولن يتم .. لأن شخصا آخر غيرك لن يمكنه القيام بأدائه .

ومن المحتمل أن تكون غير منسجم فى كل مكان تحاول أن تشغله .. وربما تكون قد فرطت فى كل شىء حاولت أن تفعله فأتى على غير ما تروم .. ربما يكون قد ضاع رجاؤك فى كل شىء أملته ، وخاب أملك فى كل شىء رجوته ، ولكن هناك لابد مكان يناسبك ويصلح لك . وستجد فيه السعادة حتما .

وعندما تجد نفسك ، وتجد مكانك ، وتجد عملك ، تكون قد وصلت الى البداية الموفقة للنجاح ، والسعادة ، والحب ، والسرور الحق .. وتكون قد حصلت على أحلى مسرات الحياة ، وبأكثر مما كنت تظنه مستحيلا .. فجميع الأشياء الجميلة التى كنت تؤمن بها ، وجميع الأشياء الطيبة التى كنت تتمناها وترجوها يمكن أن تكون ملكك — اذا استطعت أن تجد أو تكتشف نفسك ، وتعرف من تكون ، وماذا تكون .. وحينئذ فقط سيمكنك ان تملأ مكانك ، وتطالب بميراثك ..

جسمك ليس أنت :

فجسمك فى الحقيقة يتركب من مواد وفيرة ، رخيصة الثمن للغاية ، زهيدة القيمة . هى عبارة عن : ثمانية أو عشرة جالونات من الماء ،وحديد يكفى لصنع مسمارين صغيرين ، وفسفور يكفى لعمل رءوس عيـــدان علبة كبريت ، وجير يكفى لدهان « عشة فراخ » وآكسوجين وأيدروجين وكربون ببضعة مليمات ، وبعض رواسب صغيرة من المعادن الرخيصة الأخرى ، وبعض الأملاح (١) .. وكل هذه الأشياء اذا اشتريناها من السوق لا تساوى أكثر من ثلاثين قرشا ..

فهل هذا هو أنت ؟ .. كلا .
انها مجرد أشياء تمتلكها ..

ان كل فراغ ، وكل فضاء ، وكل مكان فى الكون يشغله ذكاء خالق وقوة خالقة ، وعقل مبدع جبار . يزخر بكل شىء ، ويصطخب فى كل شىء ويدعم ويؤكد كل أنواع الحياة . ولقد أخذت هذه القوة الخالقة قليلا من المعادن التى تتألف منها تربة الأرض ونبت منها جسمك . وهـــذا لا يعنى أن جسمك ليس آلة عجيبة . بل انه لكذلك ! .. بل انه أعجب آلة فى الكون جميعا .. قام بصنعها بديع السموات والأرض ، لا شريك له .. وبارادته وقوته جعل هذه الآلة تتحرك ، وتعمل ، وتسعى فى الحياة سعيها ..

اذن فأنت وجسمك شيئان مختلفان تماما ..

وجسمك عبارة عن لاقط (٢) يسجل بعض أجزاء من الاذاعة العالمية للحياة والصحة ، والعقل ..

فاذا ملأنا غرفة ما بمجموعة مختلفة من أجهـزة الراديو وضبطناها جميعا على محطة تذيع قطعة موسيقية لأكبر فرقة موسيقية ، فاننا نحصل

---

(١) مجلة « المقتطف » عدد مارس ١٩٢٥ ص ٣٥٧ .
(٢) اللاقط : جهاز الاستقبال .

على نتائج مختلفة من أجهزة مختلفة . فالأجهزة الرخيصة المعيبة تقدم لنا النغمة الموسيقية بصورة مشوهة ، وتفوت علينا لذة الاستماع لأحلى النغمات .

والأجهزة الأخرى التى تفوق الأولى بعض الشيء تنقل لنا مانسمعه بصورة لا بأس بها أجود من سابقتها .

أما الأجهزة الجيدة فانها تخرج لنا النغم كما هو ، منسابا فى رقة ، وبصوت طبيعى لبس به من عيب . وتقدم لنا ما يذاع بأمانة ودقة حتى ليخيل الينا ان الفرقة الموسيقية ذاتها معنا فى الغرفة ..

وهذه الموسيقى التى نسمعها ليست فى أجهزة الاستقبال ولكنها فى محطة الاذاعة .

وهكذا الحال فى جميع الأجسام البشرية . ينتفع بها ، ويستفاد منها ، عن طريق الاذاعة العالمية التى هى مبعث الحياة والذكاء . وهذه الأجسام البشرية تتجاوب مع الاذاعة فى كثير من مختلف الدرجات ، فصاحب الجسم الذى تنسجم نغماته مع الاذاعة العالمية يمتلك حكمة عميقة ، وعقلا ثاقبا ، وتبدو عليه امارات العالم بأشياء كثيرة لم يتعلمها قط .. وأنه ليبيت فى الأمور بسهولة ويسر ، وبطريقة طبيعية ، حتى يحصل على ما يريد ، وينال ما يشتهى .. وانه ليمتلىء صحة وعافية . ويستميل اليه الناس جميعا ، ويجتذب اليه الأشياء التى تجلب له السعادة ،وتحقق له النجاح ..

واذا ما هبطنا دركات السلم تاركين هذه النقطة العالية من الكمال والرفعة، وتأملنا أولئك الذين تقل درجة الكمال فى أجسامهم فى الاستجابة للاذاعة العالمية ، وجدنا الكثير والكثير جدا من صنوف الفاقة والعوز ، وعدم الرضا ، والمرض ، والأسى ، والحزن ، والكرب ، والهم ، حتى نصل الى أغوار اليأس والقنوط .

واني لأرى من المناسب فى هذا المقام أن أتحدث قليلا من الخوف من الموت ، لأن توافق النغم الملائم يرتكز على اتجاهات عقلية . والخوف من أى نوع انما هو اتجاه عقلى هدام .

ويجرنا الحديث الى القول بأن ليس هناك موت بالنسبة للانسان ، فقد أكدنا من قبل أن جسمك يحتوى على قليل من العناصر الكيمائية الرخيصة ، البسيطة . وهذه العناصر ليست حية ، ولكنها ميتة ، شأنها شأن العناصر الكيميائية الموجودة فى تربة الأرض . أما الكيمياويات التى يحتويها جسدك فستعود فى النهاية الى الاختلاط بمثيلاتها فى الأرض الباردة ، أو تنساب معها فى التيارات الى أعماق البحر .

والعناصر الكيميائية التى بنى منها جسمك كانت موجودة فى الثرى حينما كان الكون خاليا من أى أثر للحيـاة . وكانت ميتـة وقتذاك ، ولا تزال الى اليوم ميتة لا حياة فيها . ولكن القوة الخالقة بجلالهـا وقدرتها أوجدت من هذه العناصر جهازا ليستجيب لها وينشر على الملأ ما أوتى من نعم وآلاء ..

والحياة هنا انما هى فى العقل العـام ، وليست فى المادة الميتـة التى يستفاد منها .

وهذا العقل هو الجوهر الفرد الذى وجد بكماله منذ وجد الانسان. وما القدرة على الابداع والخلق الا مظهر من مظاهر هذا العقل العام .

« واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون » (١) .

أما جسمك فهو أداة مؤقتة تخدم غرضك لمدة ما ، وهو ليس أنت بأى حال .. فهو حتما الى موت .

---

(١) سورة الحجر : آية ٢٨ — ٣٠ .

أما أنت الحقيقى فشىء آخر .. شىء لا حد لقدرته ، وقوته ، وسطوته اذ أفاض الله عليه من قدرته وقوته .

أنت الحقيقى فيض من الله ، وقبس من روحه .

وانك لمظهر لمن يقول للشىء كن فيكون .

أما كيانك ووجـودك الحقيقى فى دائرة الأبدية فلا يحـده حد ، ولا يوقته زمان .

وجسمك محدود بالزمان والمكان لبضع سنين وفى دائرة صـغيرة ضيقة . لأن أصله — كما قلنا — من مواد معدنية ميتة ، نبتت من الأرض أمه الرءوم ، التى منها نشأ ، وعليها درج ، واليها يعود .

ولكن أنت الحقيقى لم تكن مركبا من هذه المادة المعدنية الميتة ..

أنت الحقيقى هو : نفسك ..

أنت الحقيقى هو : روحك ..

والروح خالدة لا تموت ، ولا يحدها زمان ولا مكان . ولن تفنى الى أبد الآبدين ..

والحكمة كلها لك فى حدود الدرجة التى يمكنك أن توفقها اليك..

وحين تسير الى الأمام قدما فى طريقك الى الرقى والرفعة ، ستغدو شيئا فشيئا من الخالدين ..

الحكمة .. لا تقاس بمقياس ، لأنها تفوق الحصر ..

والوقت .. لا يحد بحد ، لأنه ليست له نهاية ..

والحياة .. باقية لن تنتهى ، دائمة ليس لها زوال ..

وكذلك أنت .. أنت أيها الانسان العجيب ..

أصدقت أيها الانسان ...
... أنك أعجب شيء فى الوجود ؟

اذا سألك سائل عن أعجب شيء فى الوجود ، فماذا أنت قائل ؟ وماذا يكون الجواب ؟ .

أهو الترتيب البديع المتقن ، والنظام المحكم ، لتعاقب فصول السنة؟ أم هو حركة المد والجزر ، تلك الحركة الأزلية ، الايقاعية الرتيبة ؟ .. أم هو النظام الرائع ، الجليل ، والنمط المتسق السامى ، الواضح ، فى المجال المهيب للاجسام العلوية المجيدة فى أفلاكها ومداراتها ، وفى مسار الكواكب حول الشمس ؟ .. أم يكون فى الأعمال العظيمة ، والأسرار العميقة لظواهر الطبيعة كلها أو بعضها ؟ ..

أهو الحب .. أم العقيدة .. أم أى عاطفة من العواطف المختلفة ؟ .. أم أى انفعال نفسانى من الانفعالات المتباينة ، والاحساسات التى تثيرنا وتستفزنا ، فى بعض الأحيان ، وتدفعنا الى أعمق الأغوار ؟ .

أهو الكهرباء ، أم المغنطيسية ؟ .. أم قوة الغاز ؟ .. أم هو الامتزاج الكيمى ؟ أم الطاقات المختلفة سواء أكانت فيزيائية أم كيميائية مما استخدمها الانسان فى السنين الأخيرة وكانت من أعجب العجائب ؟ ..

أهى القنبلة الهيدروجينية مثلا ؟ أم الذرية ؟ أم النووية ؟ أم مراكب الفضاء ؟ ..

ربما يذهب تفكيرك الى مجالات الاختراع أو الاكتشاف أو التقدم فى الميكانيكا أو فى أى فن من فنون الصناعة التى بلغ بها الانسان اليوم أعلى درجات الكمال ؟ ..

اذا كانت اجابتك تشير الى أحد هذه الأشياء أو كلها فأنت مخطىء أشد الخطأ ! .. وأنت مخطىء كذلك اذا ذهبت بعيدا للبحث عن أعجب شيء فى الحياة طرآ .. أنه أقرب اليك من حبل الوريد ..

انه أنت .. أنت نفسك ! ..

اذن أنت ، أنت أيها الانسان ، أعجب شيء في الكون كله ؟ ..

لقد أطلت كثيرا في صيغة توجيه السؤال لكي أوجه انتباهك الى التركيز عليه . لأن هذه الحقيقة الكبيرة الأساسية يجب أن تكون بمثابة حجر الأساس نرسيه لنبني عليه موضوع البحث في هذا الفصل . ذلك لأنك أعجب شيء في البرية .

أولا وقبل كل شيء ربما تكون قد نازعتك نفسك أن تختلف معي في تقرير هذه الحقيقة . وربما أسمعك تقول : « لماذا يقول انني أعجب شيء في الكون ، في حين أنني ، أنا نفسي ، أعرف أنني لا يمكن أن أصل في القيمة الى هذا الحد من المنهج العظيم للأشياء ؟ »

ولكن دعني أوجه انتباهك مرة أخرى الى رأيي :

انك — أنت الحقيقي ، أي أنت نفسك — أعجب شيء في هـــذه الدنيا .. انك ربما لم تفكر في نفسك بهذه الطريقة من قبل . ولكن الى من تكون قد وجهت أكثر اهتمامك ان لم تكن وجهته الى نفسك ؟..
ومن ذا الذي ترى يهمك أمره ان لم يهمك أمر نفسك ؟ ..

أما من جهة أن لك دخلا في أمر عالمك الذي يتدفق منك ، فهـــذا صحيح . ومهما يكن شكل عالمك هذا أو صورته ، أو لونه ، أو حركته ، فهو انما يتكون من موقفك واتجاهك العقلي حياله . والعالم ، بالنسبة لك ، انما يتركز فيك ويتجمع حولك . أما الصور الذهنية التي تسجل فوق لوحة شعورك فهي تولد وتبدع استجاباتك العاطفية ، وتلهم جميع مظاهرك أو أفعالك تجاهه .

أما أنك لم تكن تدري هذه الحقيقة من قبـــل ، فهذا أمر صحيح لا خلاف فيه ولا نزاع عليه .

والجهل بأحد القوانين أو بأحد المبادىء لا يغير ولا يبدل من مدى صلاحيته أو صحته بأية كيفية كانت . فالقانون أو المبدأ فى هذه الحالة قطعى لا يرد ولا ينقض .. سرمدى ، أزلى .. ومن الغباء المطبق ، بل ومن الحمق أن ننكـره أو نكذبه أو نرفضه ، لمجـرد أننا لم نفكر فيه من قبل .

ومبدأ القوة فى الهواء المضغوط ، أو البخار ، كان موجودا دائما فى العالم . والحقيقة أن الانتاج الدائم اللانهائى من النسل الآدمى ، عاش ونما ومات دون أن يستفيد الناس بمزاياه العجيبة وفوائده الجليلة ، ولم يحدث أى تغيير طفيف فى سطوة هذا الهواء المضغوط وطاقته .

وهذا نفس ما يقال عن الكهرباء ، والغاز ، والتمـاذج الكيمى ، والطباعة ، والتصوير ، والطيران ، والراديو ، وغير ذلك من المخترعات القديمة الجديدة التى تهيىء لنا اليوم أسباب الراحة والرفاهية وتمد لنا يد العون فى كثير من شئون حياتنا . وتساعدنا فى الحصول على احتياجاتنا ومستلزمات معيشتنا .

لقد كانت هذه المخترعات موجودة فى الدنيا دائما منذ زمان ، وفى كل الأزمان ، ولكنها بدأت تقوم بخدمة الانسان منذ بدأ الانسان يتعلم كيف يكتشفها ، وكيف يستخدمها . وكلمة « يكتشف » معناها : « يزيح الغطاء » أو « يظهر » أو « ينشر » أو « يذيع » .. ولكنها لا تدل على الخلق من جديد ، أو ايجاد شىء من العدم .. وانمـا هى ، بالحرى ، العمل على الكشف عن شىء جديد والتدرب عليه . أو ايجاد حاجـة جديدة من الحاجيات التى تتضح لنا منفعتها وعدم امكاننا الاستغناء عنها والتدرب على استعمالها .

وهدفى الذى أقصده من وراء هذا هو أن أساعدك على ايجـاد « نفسك » واكتشافها ، وازاحة الغطاء عنها ، من ثم تكون قد تعلمت

مادا تكون ، وتفهمت جيدا حقيقة نفسك . ودرست المبادىء التى صرت عن طريقها ما أنت عليه .

ولكى أساعدك ، كصديق ، على جعل هذه القوى المستكشفة حديثا ، وهذه المبادىء الجديدة المستحدثة ، تقوم بدورها الايجابى الفعال فى تهذيب نفسك وتقويمها حتى ترفع من شأنك الى أعلاالدرجات وأرقاها ..

ولنعد مرة أخرى الى تلك الحقيقة الرئيسية ، وهى أنك أعظم شىء فى العالم :

أليس صحيحا أن أترك الاستجابى للدنياعن نفسك ، أومضاداتك[١] عن نفسك هى التى تلهم سلوكك وتصرفاتك ؟ .. وهى التى تشكل خلقك وسجاياك ؟ .. وبعبارة أخرى ، أليس فى اتجاهك العقلى نحو الناس والأشياء والحوادث ما يفسر العالم ويوضحه من حولك ؟ .

نعم ، انه يدور برمته فى فكرك ، وفى أسلوب تفكيرك العادى ..

ان عالمك ، بعد كل هذا ، عالم فكر ، عالم آراء ومعان ، وانفعالات وعواطف .

وليس ينفى ما تقدم ما تكون عليه من الغيرية (٢) . ولا مقدار رغبتك فى أن تبذل من ذات نفسك للآخرين . انما المهم هو أنك — قبل أن تعطى من ذات نفسك — ينبغى لك أولا أن تعرف حقيقة نفسك . وأن تكون على بينة منها . ولن يتيسر لك ذلك الا اذا فكرت وأمعنت التفكير فى حقيقة نفسك ، وفى امكانياتك الفطرية .

---

(١) المضادات :الميول او النزعات المقاومة الاخرى سواء فى السياسة او فى الاجتماع .

(٢) الغيرية : محبة الغير ، والعمل من اجل نفع الغير .

هل تستطيع أن تصور لنفسك أنك تشعر بشىء أو أنك تعرف شيئا دون أن تمعن التفكير فيه ؟

ألا يمكنك أن تستنتج من هذا أن دنياك قد خلقت ، فى الأصل ، بالمعنى اللفظى من نماذج الفكر التى كونتها وخلقتها فى مخك ؟

وهذا هو أساس علم النفس الحديث .

ان عالمنا الفردى لم يقم مستندا على الأسباب والبواعث والظواهر التى خارج أنفسنا . ولكن العالم الحقيقى — عالم كل فرد منا — يقوم فى داخلنا ، فى داخل نفوسنا . وليس الذى يسجل من « الخارج » هو الذى له قيمته الحقيقية ، ولكن الذى يجب أن نعمل حسابه هو كيفية تفسيرنا لما فى « الداخل » . والذى يعتد به ليس هو السبب الظاهر ، وانما هو استجابتنا المستقلة بخططها وعملها لأى مثير يحتوى على الفن الحقيقى للمعيشة .

والحياة جوهر الاستجابة ، والاستجابة تحددها مشيئتنا وحزمنا وعزمنا ، وحرية اختيارنا ، وفكرنا . وطبيعة استجابتنا هى التى تحدد عالمنا .

فاذا كان هذا صحيحا — وانى على يقين من أنك يا قارئى الكريم ستقرنى عليه — فأنت اذن يمكنك أن تفهم بسرعة وبسهولة أنك بالنسبة لنفسك أعظم شىء فى العالم . لأنك تبنى عالمك الخاص بك على أساس أفكارك الخاصة ..

قل ماشئت عن حجر الفلاسفة ، أو عن مصباح علاء الدين السحرى ، ولكن ماذا ترى يكون حجر الفلاسفة ، أو ماذا يكون السحر الأبيض أو الأسود الى جانب هذا ؟ ..

أتريد أن تكون الصانع ، والخالق ، والحاكم المنظم ؟ ..

أتريد أن تكون ظل الله على الأرض وخليفته ، وحامل أمانته ؟..

اذن فقد تحقق لك جميع ما تريد ..

ان الهدف الذى أقصده من وراء هذا هو أن أجعلك تعى جيدا قيمة نفسك . وأقول لك ما قاله ابو العلا المعرى :

وتحسب أنك جـرم صـغير
وفيك انطوى العـالم الأكبر

كما أننى أود أن يكون حديثى اليك باعثا لك وحافزا عـلى أن تجد نفسك وتستكشفها ، ومن ثم تبدأ تو'ا فى تحطيم الهيكل الزائف الذى يمثل الخوف ، والتقليد ، والعجز ، والقصـور .. هذا الهيكل الذى كنت تتوارى خلفه طوال السنين الماضية — حتى تثبت أقدامك على الطريق المضىء المتقدم المستمر ، والذى يقودك للوصول الى مرفأ السلام الدائم ، وينبوع السعادة المتدفق .

دعنا نفسر هذا معا .. دعنا نفسر كل مبدأ على حدة ، ونطبقه .. فأنت لأنك عظيم فى عالمك ، سينتظرك السلام فى مملكتك ، والقوة فى بدنك .. وسيكلل بالنجاح سعيك فى استكشاف ذاتك ، وفى الوصـول الى قمة المجد .. وفى استطاعتك أن تكون ما تحب أن تكونه .. وستصل الى هدفك بالقـدر الذى تعقد عليـه عزمك ، وتركز عليـه تفكيرك ، وتوجه اليه اهتمامك..ولن يقف فى سبيلك مانع أو حائل..ولن يعوقك أى عائق .. ولن يكون هناك من يستطيع أن يحبط سعيك أو يعترض سبيل رغبتك وأمنيتك ، أو يصرفك عن غرضك ، أو يحولك عن غايتك بشرط أن تكون رغبتك جادة ، ثابتة ، حازمة ، ذات تأثير فعال . ولا بد أيضا أن تكون ضرورية — أى أنها لا بد أن تستوجب الاهتمام بحق .

وبالقدر الذى تفهم به تماما رغبتك ، ويمكنك به أن تعبر بأفكارك ومشاعرك عن جهدك ، وعن سعيك الضرورى لبلوغها ، ستتقدم نحوها بخطى ثابتة حثيثة . أما اذا كنت على العكس من ذلك ، كأن تتحـول مثلا ، وتتغير ، وتشك ، وتتذبذب ، وتتردد ، ولا تعرف ما تريد ، وينقصك الحسم والتصميم ، ويعوزك حسن تدبير الأمور ، وتفتقر الى هدف معين ، فسيتخلى عنك هدفك ، وتضيع منك فرصتك ..

اذن حلل رغباتك كلها .. وتأكد تماما أنها رغبات صحيحة وذات نفع ولابد من تحقيقها •

وافحص قواك وامكانياتك .. وتسام الى أعلى درجة بمزاياك وفضائلك . وقلل على قدر الامكان عيوبك ومساوئك وتجاوز عن ضعفك الحالى ، والتمس لنفسك عذرا . ولكن ينبغى لك أن تعوضه بشعورك ووعيك ، وبقوتك النامية ، المتزايدة ، بثبات وباستمرار .

افترض أنك ربما كنت مخطئا فى اتجاهك العقلى قبل ذلك ، ولكنك باكتشافك هذه المبادىء ، لن تزل ، ولن تسقط بعد الآن . ولن تتردى فى الخطأ مرة أخرى .. ودع ايمانك يقوى ، وثقتك بنفسك تزيد وتشتد ، فتتغلب على أخطاء الماضى .

ومن ثم اتبع بل الاحق ما تريده وعيناك متألقتان ، ومحياك مشرق مضىء ، وعلى تقاطيع وجهك علامات الرضا ، وأمارات النور ، والضياء والسرور • ومن كل كيانك الثائر المتحمس تنبعث طاقة « الغرض » المستحدثة .. وسرعان ما سترى للحياة معنى جديدا ، ورونقا أخاذا ، وطعما شهيا ..

وأما الصحة والسعادة فستجتازان الحدود حتى تصلا عروقك وأوردتك .

٣ وأما الصفات ، والحالات ، والظروف ، فستبدأ فى الانسجام مع هدفك فى الحياة ..

وأما الأصدقاء والأحباء فسيقبلون اليك من أطراف الأرض ..وسترى نفسك فى دنيا جديدة ، دنيا صافية نقية ، دنيا خاصة بك وحدك ، خلقتها لك قوة تفكيرك . وصورتها لك على هيئة مشرقة ، وعرضتها أمام ناظريك وجعلت لها قواما ماديا •• ستقبل اليك متهادية متألقة ، آتية من العماء ، من العالم غير المرئى ، ومن الغامض المجهول ، لكى تستقبلك مرحبة محيية واضعة نفسها بين أحضانك .

مصيرك بين يديك

رفض الناس فى جميع العصور أن يؤمنوا بأن بضع مواد معدنيـة رخيصة تتكون منها جملة عناصر وجودهم . ونظروا الى الجسم الفيزيقى على أنه مجرد أحد مقتنياتهم الفيزيقية . بل اعتبروا أنفسهم شيئا آخر بعيدا كل البعد عن ذلك الجسم . ودرج الناس — رجالا ونساء — فى كل مكان ، على استعمال كلمات « يدى » ، و « قـدمى » و « رأسى » و « جسمى » الخ .. يعبرون بذلك عن اعتقاد أو اقتناع داخلى بأن الجسم الطبيعى أو المادى ان هو الا مجرد شىء يمتلكونه .

أما فيما يتعلق بالطبيعة الصحيحة لـ « الأنا » الحقيقية التى تملك وتشغل الجسم الطبيعى وتحتله جميعا — فثمة كثير من الآراء المتناقضة ووجهات النظر المتضاربة والمتغيرة فى كثير من الأحيان . ولقـد أمضى العلماء آلاف السنين فى بحث مسألة تحديد أو تعريف هذه « الأنا » المستقرة دون الحصول على أى نجاح يذكر .

ولقد اقتنع الانسان منذ زمن طويل بأنه لو استطاع أن يستكشف ماذا تكون حقيقة « الأنا » المقيمة والمستقرة فيه ، وماذا تكون صلتها بباعث الخلق والخليقة العظيم المتعال ، لأمكنه أن يحل جميع مشـكلاته الأخرى ، ويسمو بنفسه الى مستويات جديدة من السـلام والحب ، والنجاح ، والسـعادة ، وأمكنـه أن يتحقق ، بغريزته ، من الحقيقة الكبيرة التى تؤكـد له أنه ما دام باقيـا على جهـله بطبيعتـه الحقيقيـة ، وبالصـلة التى تربطه بباعث الخالق ، والحياة ، فسيظل الى أمد طويل يتعثر فى خطاه ، ويخطىء فى التفكير والعمل مما يجر عليه الخيبة والاخفاق والقلق والمرض والأسى والأسف.

ولقد فهم الانسان أيضا — تبعا لذلك — أنه اذا استطاع أن يتعلم

ويتوصل الى الحقائق التى تكشف له الكثير عن طبيعته الحقيقية ، وعن صلته بباعث الخلق والحياة ، فسيمكنه أن يعرف : كيف يفكر ، وكيف يعمل ، وكيف يعيش ، وكيف يسعى للحصول على الأشياء التى يرغبها.. ولكى يكون الشخص الذى يريد أن يكونه ، وينجز الأشياء التى يرغب فى انجازها ..

ان أكثر الناس، رجالا ونساء،لفى جهل مطبق،بماذا يكونوا،وبماهية حقيقة ذاتهم — من أين أتوا ؟ وما سبب وجودهم فى هذه الحياة ؟ .. وماذا يكون مصيرهم بعد حلول أجلهم ؟ وماذا يجب أن يعملوا لكى يحصلوا لأنفسهم على السعادة التى يتمنونها ويصبون اليها ؟ .. بل انهم محاطون بأسرار لا يحيطون بها علما ، ولا يدركون لها كنها .. تركلهم قوى خفية لايستطيعون أن يحكموها أو يتحكموا فيها ، وليس لهم عليها أي سلطان .. يخالفون دائما قوانين مجهولة ، عقلية وروحية ، ذات قوة وذات سطوة . ويكون جزاء هذه المخالفات : الاخفاق ، والخيبة ، والتعاسة .. تحيط بهم الظلمات من كل جانب . أما النور الخافت المتقلقل المتردد الذى يلمع من حولهم عندما يجتازون هذه الحياة ، فهو يقودهم الى الدمار ، والهلاك ، والى المسالك الوعرة التى تكتنفها المصاعب والأهوال . وتملؤها أشواك الشك ، والمرض ، وبذور الاخفاق،والخيبة والفاقة

فلكون الانسان يجتاز الحياة وهو فى جهل بطبيعته الحقيقية ، وفى جهل بالقوانين العقلية والروحية التى تحكم تلك الطبيعة ، فلا بد أن يكون شعاع النور الهادى الوحيد هو : الأمل .. ولكنه شعاع سيضعف شيئا فشيئا الى أن يخبو .

لقد كان هذا الانسان — فى حياته المبكرة،يعيش على الأمل ،ويفعل الشىء ثم يرتقب النتيجة . وكان يعتقد أنه سينجز كثيرا من الأعمال العظيمة . وسيمتلك مايلزم لاسعاده .. وكان يعتقد أيضا أنه سيكون ناجحا ، رفيع الشأن فى عمله المختار ، وأنه سيكون محترما ، وأن حياته

ستتوجها السعادة القائمة على علاقات المودة والحب الصحيح .. أما فكرة الموت فهى فكرة مخيفة ، بشعة ، مروعة ، لا يحق لها أن تخطر على البال .. فالحياة حلوة ، فيها الكثير من الفتنة ، وفيها الكثير من الجمـــال والبهاء ..

ثم هو يتعلم بسرعة أن نور أمله الهادى ليس منزها عن الخطأ . فيبدأ فى مواجهة الخيبة والاخفاق . وتبـــدأ مشروعاته تحبط ، وخططه تبوء بالفشل . ويدرك أن الأشياء التى كان يظن أنها تحمل له السعادة بين أعطافها ، لم تعد تحمل له الا التعاسة . ولكن نور الأمل ما يزال يقـــدم له بعض الهداية ويعصمه من الاستسلام الى اليأس ويدفعه حثيثا لمواجهة فشل واخفاق آخر !

وهكذا يظل على هذه الحال الى أن يأتى المساء — ويبدأ نور الأمل يومض ثم يخبو ويفنى فى الظلمة التى تكمن عند نهاية الحياة كما توجد فى بدايتها .. ألا ليت فكرة الموت لا تستمر طويلا على ما هو عليه من البشاعة والرهبة .

ثم هو ينظر الى ماضى حياته بحزن وأسى . ويتأسف على الأعمـــال الباهرة التى كان يريد أن ينجزها ! .. ويتحسر على الفيض الغزير الذى كان يأمل فى اقتنائه ! .. وعلى المجد والشهرة اللذين كان يود أن يحققهما لنفسه .

وأخيرا ، يوقن أنه كان يسعى وراء نور زائف خداع ، أضله السبيل ، وأضاع عليه الكثير من فرص الحياة الحقيقية .. ويتبين له بطريقة يجهلها أنه خالف القوانين العقلية والروحية للنجاح والسعادة . ويرى أن الوقت قد فات لمحاولة البدء من جديد فى اصلاح ما فات .. فينساق متبرما ضجرا الى الظلمة آملا أن يجد وراء هذه العتمة منطقة أخرى للنور الحقيقى ، حيث يمكن أن يستفيد من أخطائه ، ويجد السعادة التى أنكرتها عليه هذه الحياة الحاضرة ..

فلو أن الناس ــ بصفة عامة ــ أمكنهم أن يعرفوا أو يميزوا الحق المطلق الحر ، لأمكن للصورة الكئيبة للحياة الانسانية أن تتغير .

ان الضرورة النفسية الوحيدة للعالم اليوم هى الاحتياج لأكثر من اعتراف عام بالحقيقة التى تؤكد أن الرجال والنساء قادرون بالفطرة على القبض على زمام أنفسهم ، والتحكم فى قسمتهم ونصيبهم بأيديهم ، وبناء مستقبلهم حسب رغباتهم ووفق ما يشاءون .

وعنـــدما تعرف هذه الحقيقة الكبيرة ، ويعترف بها ، فان الطـــرق والوسائل المفصلة ستتضح وتبين على نطاق أوسع . وسرعان ما تنغمر السلالة البشرية فى نور يوم جديد ، لامع ، سعيد .

الكنوز المخبوءة :

ان فيك تختبىء كنوزا مجهولة غير معروفة وغير مألوفة ..

كانت هناك ذات مرة بقعة مقفرة فى فلاة ، عقيم غير مثمرة . كثيرا ما أقبل الناس عليها وأدبروا .. وكثيرا ما تهادوا فى مشيتهم عليها بملل وسآمة واكتئاب . باحثين عن مكان آخر خير منها وأجدى نفعا .. واذا برجل فى ذات مرة يتوقف فجأة ليحفر فى هذه الرمال المقفرة ــ ويكتشف راسبا من أغنى رواسب الذهب فى العالم .

وهكذا قد يبدو السطح مقفرا ، غير ذى زرع ، لا شىء فيه غـــير رمال وصخور . ولكن تحت السطح ، تحت الرمال ، قد يوجـــد ثمـــة منجم ذو قيمة كبيرة أكثر من الذهب .

وأنت ربما لا تدرك أن هذه الثروة الطائلة مدفونة فيك . لكنهـــا كذلك .. وانها لفى انتظارك حتى تجدها وتستغلها ..

ولقد يمر بك الآخرون فيظنون أنك غير مبال وغير ذى مصلحة ، وقد تكون كذلك ــ على السطح .. حتى أنك أنت نفسك قد تظن انك

تافه أو ممل . وقد تأتي عليك ساعات تخلو فيها الى نفسك وتقول لهـا — بينك وبينها — : « انني خامل ، بليد ، ثقيل الفهم ، غير محبوب . ولست على خلق متين ، ولست على شيء من الجاذبية الشخصية . وليست عندي القدرة على جمع المال . ولا أستطيع عمل شيء ببراعة أو اتقان . انني أرى هذا العبقري يعزف على الكمان ببراعة ، وذاك يغني ، والآخر يبني ، وغيره يجمع المال ، أو يتحدث بطلاقة ، أو يكتب بمهارة . ولكنني للأسف ليس عندي ما أقوم به أو أفعله ، بل أن يدي عابثة ، لاهية ، تافهة .. واذا قارنت نفسي بهؤلاء الناس الآخرين ، الأذكياء النابهين ، الموهوبين ، أجد نفسي « لا شيء » ، بل كلي اخفاق مجسم .. (س) جميل أنيق ، و (ب) قوي متين ، و (ع) مثقف ، و (ج) ألمعي موهوب . ولكن أنا — ترى أين كنت حين كانت المواهب توزع على الناس ؟ .. ترى لماذا لم أقل ما ناله غيري من ذلك التوزيع ؟ .. أهكذا المتعوس يظل أبدا متعوسا ؟ . .

فاذا كنت قد فكرت في نسبة هذه الصفات الذميمة الى نفسك ، فلا تفكر فيها مرة أخرى . فهذا غير حقيقي ، وليس فيه شيء من الصواب . ففي أعماقك ، وفي طوايا نفسك كنوز عجيبة غاية العجب ، مذهلة لا تخطر على بال انسان . ومن هـذه الكنوز : النجاح ، والشخصية الجذابة ، والحب ، والسعادة .. انك ربما لم تعثر على هذه الكنوز ، ولكنها ، بكل تأكيد ، موجودة فيك . وستظل موجودة بدون نفع الى أن تموت ، ان لم تجدها .. انها لا تصعد الى السطح من تلقاء نفسها . ومن المحتمل أن تكون قد عثرت على جزء من هذه الذخائر في « منجم نفسك » ولم تعثر عليها كلها .. ولكن تأكد من :

ان فيك لقوة — قوة تمكنك من تكييف حياتك بحيث تصبح كما تريد أن تكون ، قوة للحصول على الأشياء الضرورية ، وتهيئة الظروف والحالات اللازمة لسعادتك ، قوة للصعود بل للتسلق الى المكان اللائق بك . والذي تود أن تشغله بين الناجحين والنابهين .. هذه القوة تكمن

فى أعماقك . فاذا لم يكن قد لمست هذا العرق الغنى من المنجم الذى فيك ، فهو على كل حال ، موجود ، ويمكنك أن تسحب منه ما تسحب لتستغله وتستعمله .

وان فيك لجمالا — ان كل نفس بشرية جميلة — الى حد ما ، وفى مكان ما . وأن فيك الجمال والملاحة ، وفيك الفتنة ، والوسامة ، والشخصية اللامعة،والحسن البديع ، والنسق العجيب . وهذه الذخيرة من « جمال النفس » ، ومن الفتنة والسحر ، تستحق بكل تأكيد السعى فى التوصل اليها والحصول عليها .. وتهذيبها .

وان فيك لحكمة .. تأكدأن ليست هناك حكمة حقيقية خارج نفسك .. وليس هناك على الأقل من يستطيع أن يجعلك خيرا مما أنت عليه .. لقد أودع الله ، الخالق ، القادر ، الذى يدير الكون جميعا ، جزءا من حكمته فى نفسك . بل لقد غرس فى نفسك أيضا الحكمة المتبلورة لجميع الأمم والأجيال التى ذهبت من قبلك . ويمكنك أن تجد هذه الحكمة ، ودررها اللامعه المتألقة ، تألق الماس ، اذا أنت سعيت بجد فى البحث عنهـا لترشدك وتوجهك وتقودك الى كل أفكارك ، وخططك ، ومشروعاتك، وأفعالك ، وكلماتك ، حتى يمكنك أن تستحوذ على الأشياء التى تجعلك سعيدا ، موفقا . .

وان فيك لخيرا وتقوى .. ان الخير يرقد فى كل نفس بشرية . وهو ثابت فيها كالصخور الصلبة الصلدة . واذا أنت لم تستغل هذا الكنز الثمين فستظل فقيرا ، مكروها ، منبوذا .. وفيك أيضا السلام والاخلاص، والوفاء ، والولاء ، والحب .

وان فيك اسحرا ، وقوة ، وثروة ، وعاطفة ، وسرورا .. وهذه كلها أجزاء من ذلك الشىء العجيب الذى يسميه الناس بـ « الشخصية » .. وأنها لكنوز أودعها المصور البارىء فى « منجم نفسك » . ويمكنك من الآن أن تشرع فى البحث عن هذه الثروة المخبوءة فيك — وتصعد بهذه

الكنوز الى سطح حياتك — لكى تحصل لنفسك على الأشياء والحالات اللازمة لسعادتك ونجاحك .

والطريق العجيب الذى تنشده، يجده فى بعض الأحيان أولئك الذين يعثرون عليه عفوا وعن جهل وعن غير قصد أو معرفة . أما بالنسبة لجموع البشرية الحاشدة فان الفرد اذا لم يكن يعرف شيئا عن الطريق فلن يجده أبدا . ويجب عليه أولا أن يدرك تماما أن هنالك طريقا ، ويتعلم شيئا عن طبيعته ، ثم يبحث عنه بفطنة وكياسة وادراك . وهذه كلها عمليات عقلية ، تحتاج الى بعض المعلومات عن العقل البشرى .

ان كثيرين ممن يبحثون عن هذه العمليات العقلية يسألوننى كيف يجدون الطريق لحياة أخصب وأسعد . فمن هؤلاء من قام بنصيبه من السعى والكد والعمل ، فوجد الطريق ونال أحسن الجزاء . ومنهم من كانت له مشكلة استعصى عليه حلها ، فقام بحلها حلا سعيدا موفقا ، وحصل على الأشياء والثمرات التى كان يرغبها .

وان آخرين مهدمون نفسيا ، محطمون عقليا ، مفلسون ماليا . وبالدراسة وبتطبيق علم النفس العملى نجحوا فى تغيير مجرى حياتهم ، وفى استرداد صحتهم ، وفى الفوز بالنجاح والحب والسعادة .

وانى لعلى يقين من أن قارئى الكريم سيتحقق رجاؤه حين يفرغ من قراءة هذا الكتاب وقد عثر على أكثر من طريقة تحدد له بالضبط مكان القوى الخفية فيه . ولقد حاولت جهدى أن يكون هذا الكتاب ، فى حد ذاته ، تطبيقا لقاعدة سيكولوجية ، فالشخص حين يقدم على تحقيق أو فهم الوجود الفعلى لنفسه المستقرة ، انما يقدم على أمر خطير يتطلب اصرارا على الفهم ، وارتباطا بالتغلب على العقبات مهما كانت جسيمة !

(تم بحمد الله)

مراجـع الكتاب

المراجع العربية :

١ — **« مفصل الانسان روح لا جسد » طبعة رابعة**
للدكتور رءوف عبيد — الناشر دار الفكر العربى

٢ — **المذهب فى فلسفة برجسون**
للدكتور مراد وهبه

٣ — **العقل وسطوته**
تأليف ج . ب . راين ترجمة
الدكتور محمد الحلوجى

٤ — **الشخصية والصحة النفسية**
للدكتورين عثمان فراج وعبد السلام عبد الغفار

٥ — **معالم التحليل النفسانى لسيجموند فرويد**
ترجمة الدكتور محمد عثمان نجاتى

٦ — **ما فوق مبدأ اللذة لسيجموند فرويد**
ترجمة الاستاذ أسحق رمزى

٧ — **وليم جيمس**
للأستاذ محمود زيدان

٨ — **السيكولوجيا والروح**
للاستاذ أحمد فهمى ابو الخير

٩ — **عالم الروح فى ضوء العلم الحديث**
للاستاذ أحمد فهمى ابو الخير

١٠ — **قصة الكون من السديم الى الانسان**
الدكتورين محمد جمال الفندى ومحمد يوسف حسن

١١ — **تطور علم الطبيعة**
تأليف ألبرت انشتاين وليوبلد أنفيلد — ترجمة الدكتورين
محمد عبد المقصود النادى وعطية عبد السلام

١٢ — **الاحلام والرؤى** للمؤلف

١٣ — **لكى تكون سعيدا** للمؤلف

١٤ — **نحو حياة مشرقة** للمؤلف

١٥ — **مجلة العربى**
دكتور أحمد زكى — العددين ٢٨ و ٣٦ سنة ١٩٦١

١٦ — **مجلة المقتطف**
عدد مارس ١٩٢٥

١٧ — **جريدة الاخبار**
عدد ٦ اغسطس ١٩٦٨

المراجع الافرنجية :

Interpretation of Dreams, Freud.
2. The Mind and its Workings, By Dr. C.E. Joad.
3. Abnormal Psychology.
4. Freud's Theories of the Neurosis, By Dr. Hitchman.
The Probable Beginning of Human History.
6 The Sex Hormones, Ciba Handbook.
7. Human Physiology, By Kenneth Walker.
8. A Textbook of Practice Medicine, By S.L. Simpson, Oxford Medicine Publications.
9. Encyclopeadia Britannica.

محتويات الكتاب

★★★

٥٠